اعترافات خاين بك

تبسيط واقتباس مما كتبه ابن إياس

عنـوان الكتـاب: اعترافـــات خـــاين بـــك
الموضـــــوع: روايـــــــــــــــة
التـأليـــــف: محمـــــــد عرمـــــــوش
إخـــراج فنـــي: عمـــرو وســـالم ســـواح
غـــــلاف: باســـــم مـــــدحت
رقـــم الإيـــداع: 2019/ 17402
التـرقيم الـدولي: 978-977-6639-60-7
الناشـــــــر: دار تويتـــة للنشـــر والتوزيـــع
www.facebook.com/Tweetforpublish
tweetpublishing2017@gmail.com
٧ش محمد أبوالعطا- محطة العريش-فيصل- الجيزة
رئيس مجلس الإدارة: م/ أحمد عبد العزيز
المدير العام: أ/ رشا العمري
01017799799
01225762066

#غرّد_للعالم

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

اعترافات خاين بك

(تبسيط واقتباس مما كتبه ابن إياس)

رواية

محمد عرموش

لقاء "خاير بك" برسول السلطان العثماني.

- إذا لم يقم السلطان "سليم" بإسقاط دولة الغوري فستسقط وحدها.

قال ذلك "خاير بك" ل "جمال باشا" رسول السلطان العثماني " سليم الأول " أثناء لقاء جمعه به في حلب، حيث يشغل ملك الأمراء "خاير بك" منصب نائب السلطان الغوري في حلب، وتعددت اللقاءات التي تجمعه برسل السلطان العثماني سراً، حيث كان يعتقد أن السلطنة المملوكية قد أوشكت على الانهيار ولم تعد قادرة على الصمود، فقرر التعاون مع السلطان " سليم الأول " لاسقاطها.

فتعجب الباشا مما قاله "خاير بك" نائب حلب وسأله:

- كيف ذلك خاير بك؟

- أرى أن المماليك قد فقدوا الكثير من القوة التي كانوا يتمتعون بها مما أدى إلى عدم إمكانية سيطرتهم على البحر الأحمر وموانئ اليمن بعد هزيمتهم من البرتغاليين الذين يتعمدون إغراق المراكب التجارية المملوكية المتوجهة للهند وغيرها وسيؤدي ذلك إلى انهيار الحالة المالية للمماليك.

- يمكننا السيطرة على هذه الأمور بسهولة "خاير بك".

- أعرف ذلك يا باشا، ومتأكد منه ولذلك يجب التعجيل بسقوط دولة الغوري حتى لا تتفاقم الأمور ونجد البرتغاليين يهبطون في ميناء جدة ويهددون المقدسات الإسلامية.

- ولكن سقوط الغوري لن يكون سهلاً "خاير بك".

- لم يعد هناك الكثير ممن يدينون له بالولاء ممن حوله فالرشاوي قد انتشرت بشكل كبير وأصبحت المناصب تُشترى بالمال وتوغل الفساد وقلّت الموارد وأصبح الغوري يجمع المال بطرق مثيرة للجدل والغضب بين الناس لينفق على مماليكه، وقد قمت بالتواصل مع العديد من الأمراء وأرباب الدولة ووعدتهم كما أخبرتني بنفسك أن كل منهم سيظل في منصبه ومكانته ولن يتأثر بتغيير سلطنة الغوري بسلطنة العثمانيين

- عفارم "خاير بك"، هذا ما كنت انتظره منك، ولكن أخبرني عن الأمراء الذين لم تتمكن من التواصل معهم واقناعهم.

- بلا شك هناك عدد من أرباب الدولة موالين بشدة للسلطان الغوري كالأمير "طومان باي الدوادار"، و"الأتابكي سودون العجمي"، والأمير "طقطباي" وغيرهم، فضلاً عن "سيباي بك" نائب الشام الذي تزوجت ابنته من "ابن الغوري" مؤخراً.

- فماذا عن المماليك الجلبان والمماليك القرانصة؟

- لقد اشتعلت وقويت الفتنة بينهم.

- وهل السلطان "الغوري" يعتقد بوجود هجوم محتمل من طرفنا؟

- لقد ازدادت حيرته حول هذا الموضوع وأعتقد مما سمعت أنه يشعر في قرارة نفسه بأن مُلكه مهدد وغير مستقر.

- سبحان مغير الأحوال لقد أخبرنا مشايخنا وقادتنا عن الملك الأشرف "إينال" رحمه الله فأين الأشرف الغوري منه، فقد كان من خيار ملوك مصر وعاصر مولانا طيب الذكر السلطان "محمد الفاتح " فاتح القسطنطينية رحمة الله عليه.

- نعم يا باشا لقد سمعت بالأشرف "إينال" وعرفت الأشرف "قايتباي" ولكن الأشرف "قنصوة" الغوري يختلف عنهما كل الاختلاف.

- لقد كانت علاقاتنا بمصر في تلك الأزمان علاقات طيبة وكانت المراسلات والتعاون بين الدولتين على ما يرام حتى أن السلطان الفاتح عندما قام بهذا الفتح العظيم أرسل يبشر سلطان مصر والخليفة العباسي أمير المؤمنين في القاهرة ويوضح لهما ما حدث في رسالة مشهورة تم تداولها وتواترها بين الجميع.

- وماذا تعرف عن الأشرف "إينال" يا "جمال" باشا؟.

- أعرف الكثير عنه "خاير بك" فقد كانوا يحدثوننا عنه كثيراً وقالوا أنه السلطان الأشرف أبو النصر سيف الدين "إينال" العلائي الظاهري وهو السلطان الثاني عشر من دولة المماليك البرجية الشراكسة في مصر.

- نعم فقد سمعت أنه بويع بالسلطنة في أول عام ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣م وكانت فترة حكمه لمصر والدولة المملوكية حوالي ٨ سنوات ويقال أن "إينال" كلمة تركية.

- نعم "خاير بك" فهي من مقطعين هما: «أي» ومعناها القمر، و«نال» ومعناها شعاع أي أن اسمه يعنى «شعاع القمر».

- نعم وسمعت أيضاً أنه كان قد تولّى عدة مناصب قبل السلطنة منها رأس نوبة ثاني ونائب غزة ونائب الرها في زمن السلطان الأشرف "برسباي" عام ٨٣٦ هـ ثم حضر إلى القاهرة وأصبح مقدم ألف ثم أصبح نائب صفد عام ٨٤٠ هـ ثم عينه السلطان جقمق أتابكا عام ٨٤٩ هـ.

- أحسنت "خاير بك"، ولقد كان السلطان "إينال" ملكا هينا لينا قليل الأذى لم يسفك دما قط بغير وجه شرعي، ينقاد للشريعة الغراء ويحب العلماء ويُعتبر من خيار ملوك الشراكسة. وكانت الدولة العثمانية في ذلك الوقت تربطها علاقات طيبة مع دولة المماليك وظلت هذه الدولة القوية تحاول فتح القسطنطينية حتى تم لها ذلك في عهد مولانا طيب الذكر السلطان العثماني "محمد الثاني" الذي أصبح اسمه "محمد الفاتح".

- فهل تذكر يا جمال باشا شيئاً من رسالة السلطان الفاتح للأشرف "إينال"؟

- بالتأكيد "خاير بك" فمما أذكره جيداً مما جاء في هذه الرسالة أنه قال : (...إن من أحسن سنن أسلافنا -رحمهم الله تعالى- أنهم مجاهدون في سبيل الله، ولا يخافون لومة لائم، ونحن على تلك السنة قائمون وعلي تلك الأمنية دائمون ممتثلين بقوله تعالي ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٢٩]، ومستمسكين بقوله عليه الصلاة والسلام " من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمه الله على النار" فهممنا في هذا العام غممه الله بالبركة والإنعام معتصمين بحبل الله ذي الجلال والإكرام ومتمسكين بفضل الملك العلام إلى أداء فرض الغزو في الإسلام مؤتمرين بأمره تعالي ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ ﴾ [التوبة: ١٢٣]، وجهزنا عساكر الغزاة والمجاهدين من البر والبحر لفتح مدينة ملئت فجوراً وكفراً التي بقيت وسط الممالك الإسلامية تباهي بكفرها فخراً.. فمتى طلع الصبح الصادق من يوم الثلاثاء يوم العشرين من جمادى الأولى هجمنا مثل النجوم رجوماً

لجنود الشياطين سخرها الحكم الصديقي ببركة العدل الفاروقى بالضرب الحيدرى لآل عثمان من الله بالفتح قبل أن تظهر الشمس من مشرقها ﴿ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ۝٤٦ ﴾ [القمر: ٤٥-٤٦].

- وبالطبع فرح المسلمون في مصر وفي جميع أنحاء الأمة الإسلامية فرحاً عظيماً بهذا الفتح كما سعد "الخليفة العباسي" بذلك سعادة بالغة فكم ناصبت الدولة البيزنطية العداء للأمة الإسلامية وأذاقتها من شرورها.

- نعم، وقام السلطان "إينال" بالرد على رسالة السلطان "محمد الفاتح " برسالة يهنئه فيها بالفتح العظيم وجاء فيها بعض أبيات من الشعر الذي نظمه الشعراء في مصر بهذه المناسبة كان منها :

كذا فليكن في الله جل العزايم وإلا فلا تجفوا الجفون الصوارم
كتائبك البحر الخضم جيادها إذا ما تهدت موجه المتلاطم
يا ناصر الإسلام يا من بغزوه على الكفر أيام الزمان المواسم

ومنذ هذا التاريخ لم يعد هناك وجود لما يسمي بالدولة البيزنطية.

- إنه لمن العجيب أن تستطيع تذكر كل هذا يا "جمال" باشا

- وكيف لا أتذكره "خاير بك" إنه تاريخنا العظيم كما هو تاريخكم وتاريخ المسلمين جميعاً، أما الأعجب من كل هذا أن تتحول الأمور وتتبدل الأحوال ويصل إلى الحكم الأشرف "قنصوه الغوري" الذي قهره البرتغاليون وغلبه على أمره الفاسدون ممن حوله، وتصدعت دولته وآلت للسقوط.

السلطان الأشرف قانصوه الغوري وحاشيته.

ولنترك "خاير بك" وضيفه في حلب ولنذهب إلى قلعة الجبل بمصر المحروسة حيث كان السلطان الأشرف " قانصوه الغوري " ملك مصر والشام والحجاز، متكئاً على أريكته بالحوش السلطاني بالقلعة في إحدي أمسياته مع بعض حاشيته والمقربين منه يفكرون فيما يجب عمله للتمكن من صد أي هجوم محتمل من جانب العثمانيين، وقد شكك البعض في حدوث هذا الاحتمال من الأساس وخاصة أن الرسائل التي تأتي من السلطان العثماني "سليم الأول" كلها رسائل مُطَمْئِنة ولا تدعو للقلق ولكن السلطان "الغوري" وحده هو الذي كان يساوره هذا الشعور بالقلق ويشاركه في ذلك قلّة قليلة من خاصته المقربين منه.

وإذا بالسلطان يقول :

- "ليتني أعرف نوايا ابن عثمان ليطمئن قلبي".

فقال الأمير "ألماس" :

- لا شئ يدعو للقلق يا مولاي.
- وما يجعلك تقول هذا أيها الأمير "ألماس"؟
- ألم يقل لمولاي في آخر رسائله أن السلطان "الغوري" والدي وأسأله الدعاء؟
- إنه مجرد كلام لا سبيل لتصديقه أو تكذيبه.

وساد صمت رهيب قطعه دخول أحد المماليك السلطانية يستأذن في عرض رسالة قد وصلت للتو من "سيباي بك" نائب الشام والذي قد بلغه

حركة استعدادات سفر السلطان بنفسه على رأس جيش ضخم العدد لحماية حدود مملكته من العثمانيين وسلطانهم " سليم الأول " .

فوافق السلطان الغوري على عرض محتوي الرسالة قائلاً :

- ماذا يقول "سيباي بك"؟

- يقول يا مولاي : (يا مولانا السلطان إن البلاد الشامية مغلية والعليق والتبن ما يوجد والزرع في الأرض لم يحصد ولا ثم عدو متحرك فلا يتعب السلطان سره ولا يسافر وإن كان ثم عدو متحرك فنحن له كفاية).

- لم يُقدِّر "سيباي بك" الموقف جيداً.

ولم يجرؤ أحد على الرد وعاد الوجوم والصمت مرة أخري يسيطر على المجلس، يتخلله صوت بعض الغزلان الصغيرة التي تتحرك بحرية بالحوش السلطاني.

ثم قطع الصمت الأمير "سودون" العجمي أتابك العسكر حيث قال:

- لقد اقترب ميعاد وفاء النيل المبارك يا مولاي.

- أجل أجل واقترب كسر السد لتدفق الماء إن شاء الله.

- نسأل الله زيادة في المقياس هذه السنة بمشيئة الله يا مولاي.

- علي كل حال فلتقام الوليمة التي اعتدنا على إقامتها كل عام في مثل هذا الوقت في الروضة عند مقياس النيل.

- أدام الله عز مولاي السلطان.

منشآت السلطان الغوري :

والسلطان الأشرف " قانصوه الغوري " أحد أبطال هذه القصة لمن لا يعرفه هو كما كتب عنه معاصره المؤرخ الكبير "ابن إياس " الحنفي حيث ذكر أنه أنشأ العديد من العمائر التي بالقاهرة فمن ذلك الجامع والمدرسة اللتان أنشأهما في الشرابشيين (الغورية) والوكالة والحواصل والربوع التي أنشأها خلف المدرسة عند المصبغة، والمئذنة التي أنشأها في الجامع الأزهر وهي برأسين، وأنشأ هناك الربع والحوانيت التي بالسوق خلف الجامع، وأنشأ الربوع التي بخان الخليلي، وجدد عمارة خان الخليلي وأنشأ به الحواصل والدكاكين، وأنشأ الميدان الذي تحت القلعة ونقل إليه الأشجار من البلاد الشامية، وأجري إليه ماء النيل من سواقي نقالة، وأنشأ به المناظر والبحرة وأنشأ جامعا خلف الميدان عند حوش العرب بخطبة ومأذنة، وجدد عمارة قاعات القلعة منها قاعة البيسرية وقاعة العواميد وقاعة البحرة وأنشأ المقعد القبطي الذي بالحوش، وجدد عمارة سبيل المؤمني وجعل سقفه عقود بالحجر.

وأنشأ الربع والدكاكين التي بسويقة عبد المنعم، وأنشأ الربع والوكالة التي في الجسر الأعظم، وجدد عمارة ميدان المهارة الذي بالقرب من قناطر السباع (بحي السيدة زينب حالياً) وبناه بالفص الحجر المشهر بعدما كان مبنياً بالطوب اللبن، وجدد عمارة المقياس وأنشأ به القصر على تلك البسطة التي كانت بها، وأنشأ بها المقعد المطل على البحر، وجدد عمارة قاعة المقياس، والجامع الذي هناك، وجدد عمارة قنطرة بني وائل،

والقنطرة الجديدة، وقنطرة الحاجب.

وأنشأ بثغر رشيد سورا وأبراجا لحفظ الثغر وجدد عمارة أبراج الإسكندرية، وأصلح طريق العقبة وأنشأ هناك خانا بأبراج على بابه وجعل فيه الحواصل مثل الخان الذي في العقبة، وحفر هناك الآبار في عدة مواضع من مناهل الحجاج، وأنشأ بمكة المشرفة مدرسة ورباطا للمجاورين والمنقطعين هناك وأجري عين بازان بعد ما كانت قد انقطعت من سنين،

وأنشأ بجدة سورا على ساحل البحر الملح وفيه عدة أبراج بسبب حفظ بندر جدة من الفرنج جاء هذا السور من أحسن المباني هناك، وأنشأ على شاطئ البحر الملح بالينبع الصغير سورا وأبراجا منيعة.

وله غير ذلك من الآثار الحسنة عدة مبان بها نفع للمسلمين، وفي الجملة إن السلطان "الغوري" كان خيار ملوك المماليك الجراكسة على عوج فيه ولم يجئ من بعده أحد من الملوك يشابهه في أفعاله ولا علو همته ولا عزمه في الأمور وكان كفئا تاما للسلطنة، مبجلا في المواكب تملأ منه العيون،

مزايا وعيوب "الغوري" من وجهة نظر "ابن اياس" :

وكان لقب السلطان "الغوري" : ملك البرين والبحرين وهازم الجيشين وخادم الحرمين الشريفين، أما عندما يتكلم "ابن إياس" الحنفي عن مزايا وعيوب شخصية الغوري فكان يقول وكان للغوري محاسن ومساوي لكن مساوئه أكثر من محاسنه، فأما ما عُد من محاسنه فإنه كان رضي الخلق يملك نفسه عند الغضب وليس له بادرة بحدة عند قوة خلقه، ومنها أنه

كان له الاعتقاد الزائد في الصالحين والفقراء ومنها أنه كان يعرف مقادير الناس على قدر طبقاتهم ومنها أنه كان ماسك اللسان عن السب للناس في شدة غضبه.

أما ما عُد من مساوئه فإنها كثيرة لا تحصي منها أنه أحدث في أيام دولته من أنواع المظالم ما لا حدثت في سائر الدول من قبله، ومنها أن معاملته في الذهب والفضة والفلوس الجدد أنحس المعاملات جميعها زغل ونحاس وغش لا يحل صرفها ولا يجوز في ملة من الملل وقد ذكر "ابن إياس" الحنفي أوصافاً كثيرة حول موضوع جمع الأموال.

ولو قارن "ابن إياس" رحمه الله ما جمعه "الغوري" رحمه الله من أموال مع ما شيده من عمائر لوجد سبب وجيه لجمعه للمال وإن كانت أهمية هذه المنشآت أهمية نسبية تختلف طبقاً لاجتهاد كل شخص في تحديد أولويات الإنفاق.

وفاء النيل المبارك:

وإذا عدنا إلى أبطال قصتنا الذين حضروا الوليمة في مساء اليوم التالي، وقد كتب عنها "ابن إياس" رحمه الله ما يلي : وفي يوم الخميس المقدم ذكره ١٩أغسطس ١٥١٤م صنع السلطان وليمة حافلة بالمقياس، واجتمع بها القضاة الأربعة – يقصد قضاة المذاهب الأربعة- (الشافعي، الحنفي، الحنبلي، المالكي)، وأعيان الناس من العلماء وغير ذلك، ومد هناك الأسمطة الحافلة (موائد الطعام العامرة)، واجتمع هناك قراء البلد قاطبة والوعاظ وكانت ليلة حافلة، والسلطان كل سنة يصنع مثل ذلك بالمقياس

قرب وفاء النيل، وفي سنة عشر وتسعمائة صنع وليمة بالمقياس مثل هذه فزاد الله تعالي في النيل المبارك تلك الليلة خمسين أصبعاً دفعة واحدة، فعد ذلك من النوادر، وفي يوم الاثنين ثاني عشرينه حضر إلى الأبواب الشريفة الأمير "طومان باي الدوادار" (نائب السلطان)، وكان له مدة وهو مسافر في الصعيد بسبب ضم المغل، فلما كان يوم الأحد بلغ السلطان وصوله إلى الجيزة فنزل إلى المقياس ولاقاه من هناك، وكذلك "قاصد ابن عثمان" (الرسول القادم من طرف السلطان " سليم الأول " العثماني ويحمل رسالة للسلطان الغوري)، فلما طلع إلى القلعة يوم الاثنين المذكور خلع عليه السلطان خلعة حافلة، ونزل من القلعة في موكب مشهود، وصحبته سائر الأمراء المقدمين، والمباشرين وأعيان الناس، واستمر على ذلك حتى دخل إلى داره، وخلع عليه السلطان وأهداه في ذلك اليوم ملابس فاخرة منها فوقاني أخضر بطرز يلبغاوي عريض، ومشت الأفيال وهي مزينة أمامه في ذلك الموكب، وشق موكبه طريقه بوسط القاهرة من شارع الصليبة.

ويستمر "ابن إياس" في وصف ما حدث في تلك الفترة فيقول بأسلوبه الممتع : "وفي يوم الثلاثاء ثالث عشرينه توفى الأمير "ماماي جوشن" أحد الأمراء المقدمين الألوف (أي كان يتقدم فرقة مكونة من ألف مقاتل من المماليك ويقودهم)، وكان رئيساً حشماً جميل الهيئة قليل الأذي بين الأمراء، ومات وهو في عشر الستين، وقيل أصله من مماليك الملك "الظاهر خشقدم" رحمه الله، واشتراه بعد ذلك الملك الأشرف "قايتباي" رحمه الله من بيت المال وأعتقه فهو من جملة معاتيق الأشرف قايتباي ومن مماليكه،

فلما بلغ السلطان الغوري وفاته نزل وصلي عليه، وكانت جنازته مشهودة رحمة الله عليه،

وفي يوم الثلاثاء المذكور كان وفاء النيل المبارك، أوفي بعد الظهر، وعُلِّق الستر على شباك القصر الذي أنشأه السلطان على بسطة المقياس، وقد أوفي الله الست عشرة ذراعاً وأصبعين من سبع عشرة، ووافق ذلك ثاني عشرين مسري، وقد أبطأ هذا النيل عن نيل السنة الماضية بسبعة أيام، وكانت الناس بسببه في غاية الاضطراب،

وفي يوم الأربعاء رابع عشرينه الموافق لثالث عشرين مسري، فُتِح السد وكان يوماً مشهوداً قل أن يقع مثله في الفتك والفرجة، ورسم السلطان للأتابكي سودون العجمي بأن يتوجه ويفتح السد على العادة، فكان له في ذلك موكب حافل، وخلع عليه السلطان فوقاني أخضر بطرز يلبغاوي عريض، وحصل للناس غاية الجبر بكسر السد في ذلك اليوم وقد قيل في المعني :

كسر الخليج وكان ذلك نعمة ... سرت قلوب العالمين لبشره
ومن العجائب والغرائب أنه ... جبرت قلوب المسلمين لكسره

وقيل في المعني أيضاً :

أري نيل مصر قد غدا يوم كسره ... إذا رام جرياً في الخليج تقنطرا
ولكن بعد الكسر زاد تجبراً ... وأفرط هجماً في القري وتجسرا

ووافق أن النيل زاد بعد فتح السد بيومين عشر أصابع في دفعة واحدة، ثم في اليوم الثالث من فتح السد زاد الله في النيل المبارك إحدي عشرة أصبعاً في دفعة واحدة، ثم في اليوم الخامس من فتح السد زاد سبع أصابع فزاد ست عشرة أصبعاً من ثماني عشرة ذراعاً وذلك في أواخر مسري بعد الوفاء بخمسة أيام، فعد ذلك من النوادر، وفي يوم الاثنين ثامن عشرينه خرج جماعة كثيرة من المماليك السلطانية المعينين إلى التجريدة (القوة المتجهه للقتال) وقد رسم لهم السلطان بأن كل من انتهي شغله يخرج ويسافر، فخرجوا أفواجاً أفواجا، واستمروا على ذلك في كل يوم تخرج منهم جماعة بعد جماعة، وفي رجب كان مستهل الشهر يوم الثلاثاء فجلس السلطان في الميدان، وطلع إليه الخليفة والقضاة الأربعة يهنونه بالشهر.

مجلس الخواجا شمس الدين بالغورية

ولنترك السلطان يتلقي التهنئة بالشهر الجديد ونترك أيضاً "ابن إياس " يتابع الزيادة في النيل المبارك ونذهب إلى منطقة الشرابشيين بقصبة القاهرة الفاطمية بالقرب من الجامع الأزهر، وهي المنطقة التي اختارها السلطان الغوري لتكون موضع بناء مجموعته المعمارية الرائعة بجوار وكالته التجارية الشهيرة، وهذه المنطقة تعرف حالياً بالغورية نسبة للسلطان الغوري، وتزدحم هذه المنطقة بالناس من مختلف الطبقات ويؤمها التجار من كل مكان لبيع وشراء البضائع المختلفة . حيث تذخر هذه المنطقة بالعديد من الدكاكين والحوانيت.

ولنتوجه معاً إلى مجلس الخواجا شمس الدين أحمد النابلسي التاجر المعروف المتصدر حانوته الكبير الواسع، ويجلس معه أصدقاءه المقربون وهم من أعيان الناس، فمنهم المعلم فخر الدين على الذي كان كاتباً عند الأمير ماماي جوشن رحمه الله، ومنهم أيضاً الأديب محمد بن الصايغ والحاج أحمد الشامي، وقد اعتادوا الجلوس في هذا المجلس بعد العصر يومياً تقريباً يتحدثون ويتسامرون ويتبادلون أطراف الحديث عن البلاد والعباد، فكان لهم حديث ممتع يتضمن الكثير من عبر التاريخ والحكم والأمثال والتعليقات التي لا تخلو أحياناً من سخرية من بعض الأوضاع، وفي ذلك اليوم بدأ محمد بن الصايغ الكلام قائلاً:

- كم كنت أتمني معرفة سر اضطراب الأمور بين مولانا السلطان وسليم شاه بن عثمان.

فرد عليه المعلم فخر الدين:

- حدثني الشيخ زين الدين عبد الباسط ابن الغرسي خليل الحنفي رحمة الله عليه أن بداية حدوث الوحشة بين المماليك والعثمانيين كانت من أيام السلطان المملوكي الأشرف قايتباي رحمه الله والسلطان العثماني بايزيد الثاني رحمه الله.

- وكيف تم ذلك وما هي معلوماتك عن الأشرف قايتباي؟

- تولي السلطان الأشرف قايتباي حكم مصر سنة ٨٧٢هـ - ١٤٦٨ م وكان من ألمع سلاطين المماليك الذين حكموا مصر، وفي عهده وصل إلى القاهرة الأمير (جم) العثماني أخو السلطان العثماني بايزيد، لخلاف وقع بين الأخوين فرحب به قايتباي وأحاطه بعناية كبيرة.

- فهل كان هذا الموقف سبباً لإفساد العلاقات بين مصر المملوكية والدولة العثمانية؟

قصة أول معركة بين المماليك والعثمانيين في عهد قايتباي

- بالتأكيد فلم يغفر السلطان بايزيد للسلطان قايتباي إيواء الأمير جم، ووقعت أول معركة بين الجانبين سنة ٨٨٩هـ - ١٤٨٤ م وقد انتصر فيها الأمراء المماليك، وقد وقعت معركة أخري سنة ٨٩١هـ - ١٤٨٦ م حيث التقي جيش مصري ضخم تحت قيادة الأمير يزبك أتابك العسكر المصري مع جيش عثماني في أقصي الشمال فهزم الجيش العثماني هزيمة ساحقة، حتى قيل إن عدة من قُتِل من العثمانيين يربو على أربعين ألفاً وقبض على قائد الجيش العثماني أحمد هرسك واستولي على الأعلام العثمانية، واهتزت القاهرة لهذا النصر الكبير وأقيمت الزينات وسارت المواكب التي استعرضت فيها الأعلام العثمانية وقد وقعت مواجهة أخري بين الجانبين سنة٨٩٢هـ - ١٤٨٧ م اشترك فيها الأسطول العثماني وكان النصر أيضاً حليف الجيش المصري، ومن جديد ارتجت القاهرة لهذا النصر الجديد وأقيمت فيها الاحتفالات .

- يبدو أن الجيش المملوكي في عصر قايتباي كان من أقوي الجيوش في المنطقة إن لم يكن أقواها على الإطلاق.

- نعم فقد كان المماليك لا يزالون محتفظون بقوتهم وكفائتهم القتالية العالية، واستقر الرأي بعد مفاوضات متواصلة بين السلطان قايتباي المملوكي والسلطان بايزيد العثماني على عقد صلح بين الملكين على

أساس أن يرسل بايزيد مفاتيح القلاع التي استولي عليها إلى مصر إشارة إلى ردها إلى ملكية مصر ،علي أن يطلق قايتباي من عنده من الأسري العثمانيين، وتبادل السلطانان الهدايا والمجاملات الودية وهكذا فتحت صفحة جديدة من الود بين الدولتين سنة٨٩٧هـ - ١٤٩٢م والجدير بالذكر أن العلاقات ساءت بين الدولتين مرة أخري وبلغت ذروتها في عصرنا هذا بين كل من السلطان المملوكي الأشرف " قانصوه الغوري " والسلطان العثماني " سليم الأول " .

- نعم بكل تأكيد، فما أبرز منشآت الأشرف قايتباي؟

- تعتبر قلعة قايتباي في الإسكندرية من أهم المنشآت المعمارية للملك الأشرف قايتباي، وتم بناء هذه القلعة على أساس منارة الإسكندرية القديمة.

- أي أن مكان هذه القلعة كانت منارة الاسكندرية المشهورة تاريخياً؟

- بالتأكيد وقد أنشأ "قايتباي" القلعة المعروفة باسمه سنة ٨٨٤هـ - ١٤٧٩ م واشتملت على مسجد، والسلطان قايتباي هو السلطان الملك الأشرف "أبو النصر قايتباي الجركسي"، وولد في سنة ٨٢٦هـ - ١٤٢٣ م، وبويع بالسلطنة سنة ٨٧٢هـ - ١٤٦٨ م، وقد ظل ملكاً لمصر نحو ٢٩ سنة،

- وهل أمر بتشييد منشآت أخري؟

- نعم فقد أقام كثيراً من المنشآت المعمارية من مساجد ومدارس ووكالات ومنازل وأسبلة وقناطر للمياه، كما عني بالعمارة الحربية وبالحصون فأنشأ قلعة الإسكندرية وأخري برشيد، وقد توفي في سنة ٩٠١هـ - ١٤٩٦ م وينسب إليه ما يزيد عن سبعين أثراً إسلامياً ما بين إنشاء

وتجديد، وتعتبر مجموعة قايتباي بالقرافة الشرقية من أبدع وأجمل المجموعات المعمارية في مصر، وترجع أهميتها إلى جمال تنسيق المجموعة مع بعضها، وهي تتكون من مدرسة ومسجد وسبيل وكتاب وضريح ومئذنة، وقد لعبت دقة الصناعة وكذا جمال النسب دوراً هاماً في إبراز جمال هذا الأثر المعماري القيم.

- من الواضح أن قايتباي كان من السلاطين البارزين في دولة المماليك الجراكسة.

- نعم وقد اطلعت على ما كتبه الشيخ العلامة "ابن إياس" الحنفي عندما وصف عودة السلطان الأشرف قايتباي من رحلة الحج كما ورد بكتابه بدائع الزهور في وقائع الدهور.

- فماذا قال عن ذلك؟

وصف عودة الأشرف "قايتباي" من الحج :

- لقد قال على ما أذكر في كتابه عن اليوم الذي قدم فيه مبشر الحاج فقال :

وفيه قدم مبشر الحاج وهو شخص من الخاصكية يقال له اسنباي وقد استمر اسمه بالمبشر بعد ذلك فأخبر بسلامة السلطان وأنه دخل إلى مكة في موكب حافل وكان له يوم مشهود، ولقاه أمير مكة من مسيرة يومين، وأنه تصدق على فقراء بمكة بخمسة آلاف دينار، وتواضع تواضعاً وخضوعاً إلى الغاية، وكان بطول الطريق لا يتكلم في شئ يتعلق بالأحكام بين الناس وفعل في الطرقات أشياء كثيرة من وجوه البر والمعروف فحصل

لاسنباي المبشر جملة خِلَع، ومالا له صورة، من الأمراء وأعيان الناس، ومن خوند زوجة السلطان وغير ذلك من أرباب الدولة، وفيه جهز الأتابكي أزبك ويشبك الدوادار وجماعة من الأمراء إقامات لملاقاة السلطان من العقبة، وخرج الأمير أزبك اليوسفي أحد الأمراء المقدمين صحبة ذلك، وخرج معه جماعة كثيرة من أرباب الدولة لملاقاة السلطان من العقبة، واهتم الأمير يشبك الدوادار ببياض أماكن بالقلعة ودهان أبوابها وضرب الرنوك عليها وجلا واجهة القصر الأبلق وما يليه حتى ظهر رخامه الملون وقد احتفل في إصلاح ذلك جداً، ويستمر وصف "ابن إياس " فيقول : سنة خمس وثمانين وثمانمائة (١٤٨٠م) : فيها، في المحرم بعث السلطان نجابا إلى الأمراء وأخبر النجاب بأن السلطان دخل إلى المدينة الشريفة، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، وزار النبي صلي الله عليه وسلم وأنعم على الفقراء الذين بها بخمسة آلاف دينار، وأنه رحل نحو الينبع قاصدا للعقبة، ثم رحل عنها وهو واصل عن قريب، ثم رسم لهم بألا يخرج لملاقاته أحد من الأمراء، وأن السلطان ينزل بقبة الأمير يشبك التي بالمطرية فبادر الأمراء بالخروج إلى هناك ونصبوا الخيام، ثم جاءت الأخبار بأن السلطان قد وصل إلى البويب فلما تحقق الأمراء ذلك ركب الأتابكي أزبك والأمير يشبك الدوادار وبقية الأمراء من المطرية وتوجهوا إلى ملاقاة السلطان، فلما وصلوا إلى البويب اجتمعوا بالسلطان هناك وساروا أمامه حتى وصل إلى الوطاق الذي بالمطرية، وكان له هناك موكب حافل، وكان دخوله في ثاني عشر المحرم قبل دخول الحاج بثمانية أيام، فلما نزل بقبة الأمير يشبك مد له الأمير أزبك الأتابكي هناك مدة حافلة جداً وبات السلطان هناك وبات عنده

قضاة القضاة ومشايخ العلم وهنئوه بقدومه، فلما كان يوم الاثنين رابع عشر ركب السلطان من هناك وحمل الأتابكي أزبك على رأسه القبة والطير (شعار السلطنة)، وركب قدامه الأمراء والعسكر وهم موكبون كالأعياد، وسارت الأمراء والقضاة الأربعة قدامه، فدخل من باب النصر، وشق من القاهرة، وقد زينت له زينة حافلة، واستمر في هذا الموكب العظيم، وطلب طلبا حافلا ولعب قدامه بالغواشي الذهب وكان له يوم مشهود إلى أن طلع إلى القلعة، فلما طلع فرشت له خوند عدة شقق من باب القلعة إلى الحوش، ونثرت على رأسه خفائف الذهب والفضة وتوشحت الخدام بالبنود الذهب والحرير الأصفر، وتخلقت بالزعفران، فلما دخل السلطان إلى الحوش، مد له هناك الأمير يشبك مدة حافلة أعظم من مدة الأتابكي أزبك التي مدها له بالقبة، ثم أن السلطان خلع على من كان معه من أرباب الوظائف ونزلوا إلى بيوتهم وانفض ذلك الموكب، وعدت هذه الحجة من النوادر الغريبة، ودخل عليه جملة تقادم من مال وتحف تعدل مائتي ألف دينار من أمير مكة وقضاتها، ومن أمير الينبع وغير ذلك، وقد نظم الشعراء في هذه الواقعة عدة قصائد، فمن ذلك :

قدم السرور بمقدم السلطان ... من حجة المقبول بالرضوان
سلطاننا الملك الهمام الأشرف ... الراقي سماء الحسن
فهناؤنا ببقائه، في نعمة ... وسلامة فرض على الأعيان
لما نوى حجا ولبى محرما ... عم الأمان مراتع الغزلان
والوحش في أبياتها والدوح في ... أنباتها والطير في الطيران
ثم الصلاة على النبي المصطفى ... عدد الرمال بجملة الكثبان

- إن هذا الوصف لعودة السلطان من الحج يؤكد أن عصر الأشرف "قايتباي" كان عصر عزة ورخاء فماذا حدث بعد ذلك؟

- ولما استقر السلطان بالقلعة، أخذ في أسباب تفرقة الهدية على الأمراء، فابتدأ "بالأتابكي أزبك" ثم بقية الأمراء كل من هو في منزلته، ثم المباشرين وأرباب الدولة، وكان الأمراء والمباشرون قدموا للسلطان أيضاً تقادم حافلة، ما بين مال وخيول وقماش وغير ذلك.

- إنه وصف رائع بالفعل فهل لديك المزيد من الوصف لتفاصيل ذلك العصر عند "ابن إياس" أو العلامة المقريزي رحمه الله وهل كانت هناك أحداث أخري مهمة في عهد الأشرف قايتباي؟

- هناك وصف طريف أورده المقريزي عن تقاليد سفر السلطان في تلك الأزمان وقد قرأت ما كتبه العلامة تقي الدين على المقريزي ويمكن أن أذكره في هذه المناسبة..

- كلنا آذان صاغية.

من التقاليد السلطانية عند سفر السلطان من كتاب خطط المقريزي:

- قال "المقريزي" رحمة الله عليه : وكان من رسوم السلطان في خروجه إلى سرياقوس وغيرها من الأسفار ألا يتكلف إظهار كل شعار السلطنة بل يكون الشعار في موكبه السائر فيه جمهور مماليكه مع المقدم عليهم واستاداره، وأمامهم الخزائن والنجائب والهجن، وأما هو نفسه فإنه يركب معه عدة كبيرة من الأمراء الكبار والصغار من الغرباء والخواص،

وجمله من خواص مماليكه، ولا يركب في السير برقبة ولا بعصائب بل يتبعه جنائب خلفه ويقصد في الغالب تأخير النزول إلى الليل فاذا جاء الليل حملت قدامه فوانيس كثيرة ومشاعل فاذا قارب مخيمه تلقي بشموع موكبية في شمعدانات، وصاحت الجاويشية بين يديه، ونزل الناس كافة إلا حملة السلاح فإنهم وراءه والوشاقية أيضاً وراءه وتمشي الطبردارية حوله، حتى إذا وصل القصور بسرياقوس أو الدهليز من المخيم، نزل عن فرسه ودخل إلى الشقة وهي خيمة مستديرة متسعة ثم منها إلى شقة مختصرة ثم منها إلى قصر صغير من خشب برسم المبيت فيه، وينصب بإزاء الشقة الحمام بقدور الرصاص والحوض، على هيئة الحمام المبني في المدن إلا أنه مختصر، فإذا نام السلطان طافت به المماليك دائرة بعد دائرة، وطاف بالجميع الحرس وتدور الزفة حول الدهاليز في كل ليلة وتدور بسرياقوس حول القصر في كل ليلة مرتين : الأولى منذ يأوى إلى النوم والثانية عند قعوده من النوم، وكل زفة يدور بها أمير "جاندار" وهو من أكابر الأمراء وحوله الفوانيس والمشاعل والطبول والبياتة وينام على باب الدهليز النقباء وأرباب النوب من الخدم، ويصحب السلطان في السفر غالب ما تدعو الحاجة إليه حتى يكاد يكون معه مارستان (مستشفي)، لكثرة من معه من الأطباء وأرباب الكحل والجراح والأشربة والعقاقير وما يجري مجري ذلك، وكل من عاده طبيب ووصف له ما يناسبه، يصرف له من الشراب خانه أو الدواء خانه المحمولين في الصحبة، والله أعلم.

- إنها طقوس عجيبة فعلاً وأعتقد أن أهم ما فيها هو ما يتعلق بالطب والأطباء.

- وكان من مصطلح الملوك أن تكون تفرقة السلطان الخيول على الأمراء في وقتين أحدهما عندما يخرج إلى مرابط خيله في الربيع عند اكتمال تربيعها وفي هذا الوقت يعطي أمراء المئين (يقود كل منهم مائة مملوك) الخيول مسرجة ملجمة بكنابيش مذهبة ويعطي أمراء الطبلخانات (الذين تتقدمهم الطبول في مواكبهم) خيلا عريا، والوقت الثاني يعطي الجميع خيولا مسرجة ملجمة بلا كنابيش بفضة خفيفة وليس لأمراء العشراوات حظ في ذلك إلا ما يتفقدهم به على سبيل الإنعام ولخاصكية السلطان المقربين من أمراء المئين وأمراء الطبلخانات زيادة كثيرة من ذلك بحيث يصل إلى بعضهم المائة فرس في السنة.

- لقد كانوا يحترمون الأقدمية.

- وكان من شعار السلطان أن يركب إلى الميدان وفي عنق الفرس رقبة حرير أطلس أصفر بزركش ذهب فتستر من تحت أذني الفرس إلى حيث السرج ويكون قدامه اثنان راكبين على حصانين أشهبين برقبتين نظير ما هو راكب به، كأنهما معدان لأن يركبهما، وغاشية السرج محمولة أمام السلطان وهي أديم مزركش مذهب يحملها الركابدارية قدامه، وهو ماش في وسط الموكب، ويكون قدامه فارس يشبب بشبابة (آلة موسيقية) لا يقصد بنغمها الإطراب، بل ما يقرع بالمهابة سامعه ومن خلف السلطان الجنائب وعلي رأسه العصائب السلطانية وهي صفر مطرزة بذهب بألقابه واسمه

- فهل هذه الطقوس كانت عند ركوب السلطان إلى الميدان فقط؟

- هذا لا يختص بالركوب إلى الميدان بل يعمل هذا الشعار أيضاً إذا ركب يوم العيد أو دخل إلى القاهرة أو إلى مدينة من مدن الشام ويزداد هذا

الشعار في يوم العيدين ودخول المدينة برفع المظلة على رأسه ويقال لها الحبر وهو أطلس أصفر مزركش من أعلاه قبة وطائر من فضة مذهبة، يحملها يومئذ بعض أمراء المئين الأكابر وهو راكب فرسه إلى جانب السلطان، ويكون أرباب الوظائف والسلاحدارية كلهم خلف السلطان، ويكون حوله وأمامه الطبردارية وهم طائفة من الأكراد ذوي الإقطاعات والإمرة ويكونون مشاة.

- إنها معلومات طريفة، فهل كانت هناك مواقف تاريخية تستحق الذكر في عهد "قايتباي"؟

- هناك موقف تاريخي في غاية الأهمية وهو محاولة إنقاذ الأندلس قبل سقوطها.

- إنه موضوع أهم من وصف ركوب السلطان فماذا حدث؟

محاولة إنقاذ الأندلس في عصر الأشرف "قايتباي":

- حدثني الشيخ "زين الدين عبد الباسط ابن الغرسي خليل الحنفي" رحمة الله عليه أن من المواقف التاريخية المؤثرة التي حدثت في ذلك العصر محاولة إنقاذ الأندلس بواسطة الدولة المملوكية حيث قال : قلما نجد في صحف التاريخ ما يثير مشاعر الحزن، قدر ما تثيره هذه المحاولة النبيلة التي بذلتها الدولة المملوكية لتنقذ دولة المسلمين في الأندلس، ولقد كانت أيضاً آخر محاولة بذلتها مصر المملوكية في ميدان بعث الرسل والرسائل، ففي سنة١٤٨٩ م كانت جيوش إسبانيا النصرانية – أو جيوش قشتالة وأراجون

– تتقدم في قلب مملكة غرناطة آخر معقل لإسبانيا المسلمة وكانت دولة الإسلام في الأندلس قد أخذت منذ أوائل القرن السابع الهجري تنحدر بسرعة إلى هاوية الانحلال والفناء، ثم حل الصراع الأخير، واتحدت قشتالة وأراجون على يدى فرناندو وإيسابيلا، واعتزمت إسبانيا النصرانية أن تقوم بضربتها الحاسمة للإسلام في الأندلس، فتقدمت الجيوش المتحدة على مملكة غرناطة، وكانت أحوال غرناطة يومئذ تنذر بالويل، وكان الخلاف الداخلي قد دب إليها ومزقتها المنافسات والمعارك الأهلية، وشطرتها إلى شطرين يتربص كل منهما بالآخر، أحدهما غرناطة وبعض أعمالها ويحكمها أبو عبد الله محمد بن سعد المعروف بالزغل، وكان فرناندو وإيسابيلا قد شهرا الحرب على الإسلام قبل ذلك بأعوام كما ذكر بعض المؤرخين جزاهم الله خيراً ، وكانت أنباء الأندلس قد ذاعت يومئذ في العالم الإسلامي، واهتز لمصائبها أمراء الإسلام قاطبة، وكان أمراء الأندلس وزعماءها يتجهون إزاء الخطر الداهم بأبصارهم إلى دول الإسلام في إفريقية ومصر وتركيا لتسعي إلى غوثهم، وكانت سفاراتهم ورسائلهم تتري منذ أعوام على فاس والقاهرة وقسطنطينية.

- هذه الرسائل كانت تطلب من أقوي الدول الإسلامية في العالم في ذلك الوقت التدخل لإنقاذ الأندلس؟

- نعم وكان سلطان مصر يومئذ الملك الأشرف "قايتباي المحمودي الظاهري"، ولم تكن أحوال مصر على ما يرام يومئذٍ، فقد كان يسودها الانحلال الداخلي، وكانت فوق ذلك تخشي الخطر يهددها من ناحية الترك، ولكن مصر لم تنس مهمتها التاريخية في توجيه الرسل كلما دعيت إلى ذلك،

ووصلت سفارة الأندلس إلى مصر في أواخر سنة ٨٩٢هـ (نوفمبر سنة ١٤٨٧م)، ويصف "ابن إياس" هذه السفارة فيما يأتي : وفي ذي القعدة سنة ٨٩٢هـ جاء قاصد من عند ملك الغرب صاحب الأندلس، وعلي يده مكاتبه من مرسله تتضمن أن السلطان يرسل له تجريدة تعينه على قتال الفرنج، فإنهم أشرفوا على أخذ غرناطة وهو في المحاصرة معهم.

- وكيف كانت الاستجابة لهذه الرسائل؟

- مهما يكن من موقف مصر المملوكية والدولة العثمانية يومئذ إزاء حوادث الأندلس فإن مصر هي التي انفردت بتلبية نداء الأندلس، والسعي إلى إنقاذها ولم تكن أحوال مصر يومئذ مما يسمح لها بإرسال جيش أو غيره من المساعدات المادية، إلى ميدان حرب ناءٍ كالأندلس، ذلك أن سلطان مصر الأشرف، أجاب على سفارة الأندلس بتوجيه سفارة مصرية إلى البابا وملوك النصرانية، ولكنه لم يعهد بها إلى سفراء مسلمين، وإنما عهد بها سفراء من رعاياه النصارى.

- إنه موقف ينم عن الحكمة في الاختيار.

- أجل، واختار لأدائها راهبين من جماعة القديس فرنسيس أحدهما القس انطونيو ميلان وعهد إليهما بكتب إلى البابا وإلي ملك نابولي، وإلي فرناندو وإيسابيلا ملكي قشتالة وأراجون.

- أي أنه استعان بالسياسة بدلاً من القتال واختار لأداء المهمة رعاياه من النصارى، يا لها من حكمة فماذا كتب في رسالته؟

- وفي هذه الكتب يعاتب سلطان مصر ملوك النصارى، على ما ينزل بأبناء دينه المسلمين في مملكة غرناطة، وعلي توالي الاعتداء عليهم، وغزو

أراضيهم وسفك دمائهم، ونهب أملاكهم، في حين أن رعاياه النصارى في مصر وفي بيت المقدس، وهم ملايين، يتمتعون بجميع الحريات والحمايات، آمنين على أنفسهم وعقائدهم وأملاكهم، ولهذا فهو يطلب إلى ملكي قشتالة وأراجون، الكف عن هذا الاعتداء، والرحيل عن أراضي المسلمين، وعدم التعرض إليهم، ورد ما أخذ من أراضيهم، ويطلب إلى البابا وملك نابلي أن يتدخلا لدي ملكي قشتالة وأراجون، لردهما عما يدبرانه من المشاريع لإيذاء المسلمين والبطش بهم،

- فماذا في يده ليفعله إذا لم تتم الاستجابة لمطالبه، وإلا فقد تكون رسائل لا قيمة لها؟

- نعم فقد أضاف أيضاً هذا التهديد: هذا وإلا فإن سلطان مصر يضطر إزاء هذا العدوان، أن يتبع نحو رعاياه النصارى سياسة التنكيل والقصاص، ويبطش بكبار الأحبار في بيت المقدس، ويمنع دخول النصارى كافة إلى الأراضي المقدسة.

- أي ما يسمى المعاملة بالمثل، فماذا حدث بعد ذلك؟!

- لقد تم الرد على "قايتباي" بأن هذه المعارك والصراعات ليس لها علاقة بالاضطهاد الديني ولكن لاستعادة الأرض فقط، وهو ما ظهر عكسه تماماً بعد سقوط الأندلس والتنكيل بالمسلمين.

- فهل نفذ المماليك تهديداتهم بعد سقوط الأندلس بشأن معاملة رعاياهم من النصارى؟

- بالطبع لا، فهذا يتعارض مع تعاليم الإسلام السمحة مع أهل الذمة.

- إن سقوط الأندلس بالتأكيد كان له أثره المحزن على جميع المسلمين بلا شك ولكنهم كانوا في حالة من الصراعات فيما بينهم شغلتهم عن القيام بواجبهم لإنقاذ الأندلس، وقد بدأت المعارك بالفعل بين أقوى دولتين في العالم الإسلامي في ذلك الوقت العثمانية والمملوكية.

- نعم وقد انشغل السلطان "الغوري" بعد ذلك بخطر من نوع جديد يهدد حركة التجارة المصرية في البحر الأحمر فضلاً عن مشاكله مع العثمانيين.

- وكيف ذلك؟

- لقد حدث صراع على طرق التجارة البحرية في البحر الأحمر بين البرتغاليين والمماليك.

- وما قصة هذا الصراع؟

الصراع المملوكي البرتغالي حول البحر الأحمر:

- بدأ هذا الصراع منذ وصول البرتغاليين إلى البحار الشرقية حيث عمل كل طرف على الاستيلاء وأسر سفن تجار الطرف الآخر بل عمل كل فريق على العبث وإتلاف وافساد ثروات الفريق الآخر، وعادت هذه الأعمال العدائية من جانب الطرفين بالخسارة الشديدة على موانئ البحر الأحمر وبخاصة موانئ عدن ومخا وجدة وكثرت الاشاعات بفساد الافرنج وتعبثهم على التجار وقد جابوا حول بندر جدة

- ولماذا فعل البرتغاليون كل هذا؟

- قامت سياسة البرتغاليين في حقيقة الأمر منذ تلك الفترة على أساس القضاء على كل نفوذ تجاري للتجار العرب في -البحار- الشرقية، ومن هنا كانت مطاردتهم للسفن العربية وإغراقها والعمل على طرد العرب من المراكز التجارية الهندية والإفريقية منذ وصول البحار "فاسكو داجاما" إلى هذه البحار حيث قام أثناء رحلته الثانية سنة ١٥٠٢ بإرسال حملة مكونة من خمس سفن حربية للإقامة الدائمة عند مدخل البحر الأحمر والعمل على مهاجمة السفن العربية ومنعها من مزاولة النشاط التجاري في مياه المحيط الهندي إلا بتصريح من البرتغاليين، وفعلاً تمكن قائد هذه الحملة البرتغالية من القيام ببعض الأعمال العدائية ضد السفن التجارية العربية كما تمكن من أسر بعض البحارة العرب، وقد ازدادت حدة الحصار البرتغالي شدة حينما وصل إلى المياه الشرقية البوكيرك سنة ١٥٠٦ الذي شدد من فرض الحصار البحري المفروض على البحار العربية ومداخلها مما أضر ضرراً فادحاً باقتصاد كل من مصر واليمن والبندقية التي كانت تسعى جادة في تلك الآونة على مقاومة الخطر البرتغالي عن طريق حث السلطان الغوري على النهوض لمقاومة هذا العدو المشترك.

- نعم، أنا أذكر استقبال السلطان الغوري لسفير البندقية في الحوش السلطاني بالقلعة

- أجل، ورغم سوء الظروف الداخلية التي كانت تحيط بالسلطان الغوري فإن خطته قائمة آنذاك على تقوية نفوذه في أقاليم البحر الأحمر وتحصين سواحله إدراكاً منه لأهمية هذا البحر الإقتصادية بالنسبة لأملاكه في مصر والحجاز ولذا فإنه أرسل في ٦ جمادي الآخرة سنة ٩١١هـ -

٤نوفمبر سنة ١٥٠٥م حملة بحرية تحت قيادة حسين الكردي من ميناء السويس ووجهتها الهند على أن تعمل في نفس الوقت على تحصين ميناء جدة استعداداً لمواجهة أي خطر برتغالي في المستقبل لمهاجمة الأماكن المقدسة، ولذا فإن الحملة زودت بالفنيين اللازمين للقيام بهذه التحصينات، وقد أقام هؤلاء الفنيون فعلاً بعض الاستحكامات في هذا الميناء ثم اتجهت الحملة إلى موانئ اليمن الواقعة على البحر الأحمر مثل قمر بجيزان وجزيرة كمران ثم اتجهت إلى مخا فعدن حيث ذكر الأمير "حسين الكردي" قائد الحملة لحاكم عدن الطاهري أن الحملة تستهدف الذهاب إلى الهند لمحاربة البرتغاليين فأمده حاكم عدن بما يشاء من طعام ومؤن ومع أن الحملة تمكنت حينما وصلت إلى (ديو) من التحالف مع بعض الإمارات الهندية وإحراز انتصارات جزئية على القوى البرتغالية إلا أن الهزيمة حلت بها في النهاية ولم تحقق الهدف المرجو منها، ومنذ تلك الآونة ازداد اقتراب الخطر البرتغالي إلى مداخل البحر الأحمر.

- يبدو أن المماليك لم تعد لديهم القدرة على مواجهة أعداء الأمة المتربصين بها.

- لذلك أعتقد أن العثمانيين يمكنهم ذلك في حال سيطرتهم على البحر الأحمر واليمن فهم قوة لا يستهان بها.

- لا تذكر ذلك أمام أحد من المماليك وإلا بطش بك، وأرسلك للسلطان فيتغير خاطره عليك ويسلمك للزيني بركات المحتسب فيتحول ليلك إلى نهار ونهارك إلى ليل.

ونترك مجلس الخواجا "شمس الدين" الذي بدأ الحديث يتطور فيه ليصبح غير آمن، ولنصعد إلى القلعة لنتابع ما يفعله السلطان "الغوري".

الغوري يستضيف رسول "سليم الأول" :

ونعود إلى السلطان "الغوري" لنجده في الميدان مع ضيوفه والمقربين منه يشاهدون ويتابعون رياضة مملوكية شهيرة ومحببة طالما مارسوها وأتقنوها وهي رياضة اللعب بالرماح على صهوات الخيول بمرونة وسرعة فائقة، مع دقة متناهية ورشاقة منقطة النظير، من الفرس والفارس، وكأن هذه الرياضة مملوكية شكلاً وموضوعاً.

أما الطريف في مجلس السلطان هذه المرة هو وجود رسول قادم من الدولة العثمانية برسالة للسلطان الغوري من السلطان "سليم الأول" الذي لا نعرف حتى الآن هل هو عدو أم صديق، ويسمي الناس الرسول في ذلك العصر (قاصد) فتجد "ابن إياس " رحمه الله يقول : جلس السلطان بالميدان وحضر عنده "قاصد ابن عثمان"، ويؤكد "ابن إياس" أيضاً أن السلطان "الغوري" في هذا المجلس احتفى بهذا القاصد وأجلسه في مكان مميز يفوق مكان قائد الجيش نفسه "الأتابكي سودون العجمي"، وقد حرص السلطان على أن يتواجد هذا الرجل العثماني في الميدان ليتابع وينبهر بقدرات المقاتلين المصريين وبراعتهم في التحكم في الخيول والرماح وهو ما لا يتاح لغيرهم، وهو ما يمثل نوع من أنواع الردع الذي يسميه العسكريون التلويح بالقوة بدون استخدامها أو قل لتوفير استخدامها من الأصل إذا أدت رسالتها في ترهيب العدو.

ويصف "ابن إياس" بأسلوبه الممتع هذا المشهد في كتابه (الرائع بدائع الزهور في وقائع الدهور) فمما كتبه ما يلي :

"...أظهروا في لعب الرمح الفنون الغريبة حتى تحير القاصد من ذلك وتعجب غاية العجب، ثم في أواخر السوق نزل المعلم والباشات الأربعة والأربعون فارساً وباسوا الأرض للسلطان، وكان السلطان قصد سوق الرماحة قدام القاصد عمداً حتى يريه فروسية عسكر مصر، وكان ذلك عين الصواب، فاجتمع في الميدان في ذلك اليوم الجم الغفير من الخلائق، وكان يوماً مشهوداً، فساق الرماحة في ذلك اليوم مرتين، ثم لعب بعد ذلك جماعة من المماليك خصمانية في الرمح، والقاصد ينظر إليهم ويتعجب من ذلك، فلما انقضى أمر سوق الرماحة قام السلطان ودخل إلى (قاعة) البحرة التي أنشأها في الميدان، وأضاف القاصد هناك هو والأمراء ومد لهم أسمطة حافلة بالطعام والحلوي، وأظهر أنواع العظمة في ذلك اليوم إلى الغاية، ثم خلع على قاصد ابن عثمان خلعة سنية وأهداه هداية قيمة وثمينة".

ولم ينس السلطان في ذلك اليوم أن يكافئ الأمراء والفرسان الذين قاموا بالعروض المثيرة الممتعة أمام رسول ابن عثمان وأنعم عليهم وأكرمهم.

وصول أخبار معارك شرسة بين السلطان " سليم الأول " و"إسماعيل الصفوي".

وفي الأيام التالية وصلت أخبار مواجهات ومعارك وانتصارات للعثمانيين على دولة الصفويين، فتابع الغوري هذه الأنباء بحذر وترقب، وكانت الدولة الصفوية على عداء شديد مع العثمانيين ولا تتوقف الحروب والمعارك بينهم، وكان "خاير بك" نائب حلب هو أحد الذين يرسلون الرسائل للسلطان "الغوري" ليطلعه على آخر وأهم التطورات ولكنه كان يعتقد أن الدولة المملوكية ليس لها الحق أن تقف على الحياد في هذا الصراع حيث كان يؤيد قتال " سليم الأول " للصفويين لما يقومون به من جرائم ومذابح بشعة ضد أهل السنة فقد كانت الدولة الصفوية دولة شيعية متشددة، وقد أخبره "جمال" باشا في أحد اجتماعاته به أن كل مسلم سني يتبع الخليفة العباسي في القاهرة لابد أن يقف مع السلطان "سليم الأول " ضد الدولة الصفوية وسأله يوماً قائلاً :

- أنا لا أفهم كيف يقف الخليفة والقضاة الأربعة وعلماء الأزهر في مصر هذا الموقف مع السلطان الغوري ولا يحرضونه على الدولة الصفوية؟

- قد يكونون مجبرون على هذا الموقف ولا حيلة لهم فيه يا باشا.

- فما دور علماء الإسلام إذن إن لم يدافعوا عن الحق؟!! أما مولانا السلطان "سليم الأول" حفظه الله المسلم السنى الغيور الحاسم بعد ان استقر له الحكم شرع في التخطيط للقضاء على دولة الصفويين التي

اسسها الشاه "إسماعيل الأوّل بن حيدر الصفوي" عام ١٤٩٩، واستطاعت أن تهدد بالخطر دولة العثمانيين في الشرق، حيث كان إسماعيل قد وسّع من نفوذه وجعل مركزه مدينة تبريز سنة ١٥٠١، ثم فتح العراق العربي وبلاد خراسان وديار بكر سنة ١٥٠٨، واحتل مدينة بغداد. وفي سنة ١٥١٠ كان قد ضمّ إلى أملاكه كل بلاد فارس وأذربيجان.

- وبذلك امتدت مملكته من الخليج العربي إلى بحر قزوين، ومن منابع الفرات إلى ما وراء نهر جيحون.

- لذلك قال مولانا السلطان "سليم الأول " لقادته وهو يخطط للقضاء على الصفويين (ان سجادة الصلاة تسع اثنين من الصوفية ولكن الملك لا يسع غير واحد)..

- إنه محق في ذلك يا باشا ولكن هل وقف الأمر على ضم الأراضي فقط لحكمه؟

- لا "خاير بك"، فعلاوة على توسع الصفوي في ضم الأراضي: فإنه فرض بالقهر والقتل المذهب الشيعي على الشعوب المسلمة السنية وقتل حوالى مليون من السنة وعندما احتل بغداد عام ١٥٠٨، هدم ما كان فيها من قبور أئمة سنة وذبح جماعة من العلماء.

- لقد وصلت الأخبار إلى الجميع آنذاك بأن مذبحة عظيمة أصابت السنة ببغداد على يد الصفويين.

- لقد اتسمت العلاقات بيننا وبين الصفويين بالفتور والتوتر والقلق من كلا الطرفين فالصفوي عرف السلطان "سليم الأول " خلال حربه معه التي أُسر فيها شقيقه، والسلطان "سليم الأول" وصلته معلومات أن "الشاه

إسماعيل" قام بإرسال وفدًا ضخمًا إلى السلطان "قانصوه الغوري" سلطان المماليك.

- ولماذا أرسل للغوري يا باشا؟

- لدعوته للتحالف معه في الحرب ضد السلطان "سليم" وخوفه من تطلعات وقوة "سليم الأول" فعزم "سليم" على مهاجمة خصمه الصفوي وتسديد ضربة قوية قبل أن يستعد للنزال. لذلك أرسل هو الآخر وفداً إلى المماليك حذرهم من أي تحالف مع الصفوي ودعاهم إلى التحالف.

- نعم ولكن المماليك اعلنوا التزام الحياد ظاهريا وإن كانوا يميلون لجانب الصفويين ولا ينسى السلطان "سليم" أن الصفوي ساعد شقيقه الأمير "أحمد" في العصيان على والده وعليه بعد حكمه واستقبل من فرّ من أولاد احمد عنده، مما جعل السلطان "سليم" يعتبر الشاه إسماعيل ودولته خصمه الألدّ.. - وقبل المعركة طارد " سليم الأول " التركمان العلويين الموالين للصفويين الذين اثاروا تمرد وقلق داخل الاناضول، وأعدمهم.. ثم كانت معركة چالديران الخالدة.

- فما تفاصيل هذه المعركة يا باشا؟

- هى من المعارك الفاصلة في تاريخ المسلمين ولا أبالغ إن قلت أنها مثل حطين ضد الصليبين وعين جالوت ضد التتار فمعركة جالديران كانت ضد الصفويين لو لا قدر الله لم تتم لكانت جزيرة العرب وآسيا كلهم شيعة.

- وكيف خطط لها السلطان "سليم" يا باشا؟

- كانت الشورى هي الأساس "خاير بك"، حيث جمع السلطان " سليم الأول " رجال الحرب والعلماء والشيوخ والوزراء في مدينة أدرنة في

١٩ من المحرم ٩٢٠هـ _ ١٦ من شهر مارس ١٥١٤م، وذكر لهم.. خطورة الصفويين في إيران، واعتداءهم على حدود الدولة العثمانية. واعتداءهم بوحشية على أهل السنة في وسط آسيا والهند وأفغانستان..، وخطورة تمددهم الى تركيا والشام ومصر.. واقتنع الجميع بضرورة الجهاد ضد الدولة الصفوية الشيعية.

- فكم من المقاتلين استطاع السلطان "سليم الأول " حشده للقتال؟

- لقد خرج السلطان "سليم الأول " على رأس جيش كبير من ١٤٠ الف جندي من أدرنه اقصى غرب الدولة العثمانية إلى إسطنبول ثم الى الأناضول فتبريز في مسيرة طويلة وترك العاصمة لولي العهد الأمير "سليمان".. وعمل السلطان "سليم" على تأمين جبهته من الخلف بهدوء وتمثل ذلك في استقرار علاقاته الدبلوماسية مع الدول المجاورة له وهم النمسا وهنغاريا وروسيا.. كما قام بتجميع حلفاء له فقد راسل السلطان "سليم" عبيد الله خان الأوزبك يذكره بقتل عمه، ويحثه على الانتقام من "إسماعيل الصفوي"، ويعلمه عن النوايا بالتحرك ضد إيران، ويوصيه بمهاجمة خراسان بمجرد وصول الجيش العثماني إلى إيران، وكان هدف السلطان "سليم" من ذلك أن يجعل إيران بين شقي الرحى من الشرق بهجوم عبيد الله خان على خراسان.. والغرب من ناحيته.

- وكيف جاءه الرد؟

- كان الرد بالموافقة وأنه انتصر على القوات الصفوية في سمرقند. وتحرك السلطان "سليم" على رأس جيش يبلغ ١٤٠الف وصل قونية بعد ٤٠ يوم فاستراح لمدة ثلاثة أيام، ثم واصل سيره، وحين وصل إلى مشارف

قيصرية، بعث برسوله إلى علاء الدولة التركماني الشيعي يختبره طالبا منه المساهمة في حرب الصفويين، لكن علاء الدولة اختلق الأعذار في عدم المجيء إليه، متعللا بكبر سنه وإنه لا يستطيع القيام بأي مجهود لكونه تحت الحماية المملوكية.

- وهل التزم الحياد؟

- لا، فما إن مضى السلطان "سليم" في طريقه حتى هاجم علاء الدولة ساقة الجيش بإيعاز من السلطان "قانصوه الغوري"..

- لهذه الدرجة كان "الغوري" يريد تدمير العثمانيين؟

معركة جالديران:

- نعم، ولكن السلطان "سليم" كان مدرك لذلك فترك ٤٠ ألفا من جنده بالقرب من قيصرية، للحفاظ على مؤخرة الجيش والأمن بالأناضول من أي اختراق قد يحصل، مع ذلك فالسلطان لم ينس فعلة علاء الدولة فانتقم منه عند عودته. وبدأت حرب جمع معلومات بين الطرفين، فنقلت العيون ل "سليم الأول" أن الشاه "إسماعيل الصفوي" ينوي تأخير القتال إلى فصل الشتاء؛ حتى يهلك العثمانيين جوعًا وبردًا، وأن إسماعيل قد ينسحب إلى داخل الصحراء على حدود أذربيجان، فأرسل "سليم الأول " بسرعة جيوشه الجرارة قبل دخول الشتاء حتى وصل إلى جالديران، واحتل الأماكن الهضبية؛ وارسل رسالة الحرب المعنوية من "سليم الأول " إلى "إسماعيل الصفوي".. "إن كنت رجلا فلاقني في الميدان"، وأرفقها بمجموعة من الملابس النسائية والعطور وأدوات الزينة وذلك استهزاء

بشخص الشاه لتهربه وتقاعسه من المسير إليه ويستعجله بالحرب، وهو ما دفع بـ "الشاه إسماعيل" بالتحدي وواعده بجالديران قائلا له: "وأنا أيضا أعد العدة للحرب."

- يا لها من أحداث مثيرة فمتى دارت رحي الحرب؟

- انه يوم مشهود صبيحة يوم الأربعاء، ٢ رجب سنة ٩٢٠هـ-٢٣ أغسطس سنة ١٥١٤م، وما إن أعلنت ساعة الحرب حتى هدرت المدافع العثمانية وتعالت أصوات الجند من كلا الفريقين. وبعد معركة حامية الوطيس، انتصر العثمانيون، وانكسر جيش العدو وسقط أقوى قادته صريعًا في أرض المعركة ووقع الكثير من قادته بالأسر، وأُسرت أيضا إحدى زوجات الشاه، وأما الشاه فقد جُرِح في ذراعه وفر من المعركة متجهًا صوب تبريز بعد أن أنقذه أحد ضباطه من الوقوع في الأسر، مما حدا السلطان "سليم الأول " أن يأمر أحد قادته بتعقب الشاه فى كل مكان لقتله الأمر الذي جعل الشاه يترك تبريز ويلوذ بالفرار. أما من وقع بالأسر من قوات "الشاه إسماعيل"، فقد أمر السلطان بإعدامهم جميعًا، وأن يصنع من جماجم القتلى هرم ليُنصب في ساحة المعركة.

- لقد كانت لهذه الأخبار وقعها المرعب على الغوري ومماليكه، فماذا حدث بعد ذلك؟

- واصل السلطان " سليم الأول " سيره حتى احتل تبريز عاصمة دولة الصفويين وجعلها مركزًا لعملياته الحربية، ولكن السلطان "سليم الأول " توقف مضطرا بانتصاره فى جالديران بسبين. أولهما دخول الشتاء بقسوة والجليد وتعب الجند بسبب البرد القارس. وثانيهما تمرد بعض قادة

الانكشارية من مواصلة الزحف فكتمها "سليم" حرصا على وحدة جيشه وعند رجوعه فى أول استراحة أعدمهم جميعًا لتمردهم.

- يا له من سلطان في منتهى الحزم والقسوة مع الأعداء والخونة والمتمردين، إن مثله لا يمكن للغوري أن يتحداه أو يقاتله، فماذا كانت نتائج هذه المعركة يا باشا؟

- لقد أسفرت هذه المعركة عن ضم شمالي العراق وديار بكر ومدن كثيرة إلى الدولة العثمانية، ومناطق اكراد شرق ايران وقد فوض السلطان الزعيم الكردي إدريس البدليسى في إدارة إقليم الكرد مفوضا منه وتم استقرار المسلمين في آسيا الصغرى وانحصار النفوذ الشيعي في جنوب ووسط إيران.

- فماذا حدث بعد ذلك يا باشا؟

- لقد وصلت معلومات للسلطان "سليم الأول " بعد معركة جالديران عن وجود علاقة وثيقة وتنسيق بين الصفويين والبرتغاليين ألدّ أعداء الإسلام، الذين تحركوا مستغلين انشغال العثمانيين بقتال الصفويين، وأحكموا سيطرتهم على كافة الطرق القديمة بين المشرق والمغرب..

- نعم يا سيدي فقد فشل المماليك في تحجيم دور البرتغاليين في البحر الأحمر ولابد من تحملكم هذه المهمة بدلاً منهم.

- العجيب أن الكثير من أهل السنة لا يذكرون فضل السلطان "سليم" ذلك الرجل!! الذي صنع مجدا وانتصاراً للسنة.

- يراه البعض رجلا عسكريا شديد القسوة يا سيدي.

- نعم فهذه طبيعة المرحلة التى تختار قادتها وبعض الآلام ضروريه لصنع النصر، "خاير بك"

كان "خاير بك" يستمع منبهراً لما يحكيه الباشا عن السلطان "سليم الأول " ولم يكن يتخيل في قرارة نفسه أن سلطانه الغوري لديه القدرة هو ومماليكه على هزيمة مثل هذا الرجل الذي يتسم بالحسم والقوة ويمتلك أقوي مدفعية في العالم في ذلك الوقت.

عودة إلى مجلس الغوري بالقلعة :

كان السلطان "الغوري" قد عقد مجلس للمشورة بشأن ما وصلته من أخبار من "خاير بك" نائب حلب، وكان المجلس كالعادة في الحوش السلطاني حيث تتصاعد رائحة البخور وتتجول الغزلان بحرية، ويتهيأ الجو الذي يحبه السلطان، فقد كان الغوري على حد تعبير "ابن إياس " : مولعاً بشم الرائحة الطيبة من المسك والعود والبخور، وكان ترفاً في مأكله ومشربه وملبسه، ويحب رؤية الأزهار والفواكه، وكان مولعاً بغرس الأشجار وحب الرياضات، وسماع الأطيار المغردة، ونشق الأزهار العطرة والبخور، وكان يستعمل الأشياء المفرحة.

بدأ الأمير "طقطباي" الحديث قائلاً :

- أنا لا أعتقد أن الأخبار القادمة من عند "خاير بك" أخبار دقيقة يا مولاي فهو قد اعتاد المبالغة والتهويل في وصف انتصارات ابن عثمان على الصفويين والعكس

فقال الأمير سودون العجمي :

- هذا لا يمنع من اتخاذ الاستعدادات اللازمة، والكلام على محمل الجد.

- ألا تراه يبالغ في وصفه للمدافع العثمانية، ونحن لم نسمع عن وجود المدافع إلا في القلاع والحصون والأبراج.

فقال الأمير "ألماس" :

- سمعت أن العثمانيين قد استطاعوا تركيب دواليب وعجلات للمدافع لجرها بالثيران إلى ميادين القتال، فحولوها من وسيلة للدفاع إلى سلاح للهجوم.

- هذا يتطلب مقاتلتهم قبل وصولهم إلى ميدان القتال حتى لا يتمكنون من تجهيز مدافعهم في الوضع المطلوب، أما مهاجمتهم أثناء الحركة فسيكون مناسباً.

فقال الأمير "طقطباي" :

- إن كثرة الرسائل التي تأتي بخصوص معارك الصفوي وابن عثمان قد أصابتني بالحيرة يا مولاي حتى أنني لم أعد أفهم من انتصر على من فالأخبار متضاربة ومبالغ فيها.

فقال الأمير "سودون" :

- أياً كان، من انتصر على من؟ فسوف يتوجه المنتصر بجيشه نحونا بالتأكيد.

واستمر النقاش على هذا النحو، والسلطان يستمع فقط ولا يتدخل في الحديث إلى أن حسم الموقف بقوله :

أنا أخرج بنفسي وأقعد في حلب حتى نرى ما يكون من أمر الصوفي وابن عثمان، فإن كل من انتصر منهما على غريمه لابد أن يزحف على بلادنا.

فانفض المجلس على أن لابد من خروج (قوة) تجريدة تقيم بحلب ويحرسون البلاد.

وكتب "ابن إياس " : (وفي يوم الأربعاء ويوم الخميس أنفق السلطان على المماليك بقية النفقة ... وفي يوم السبت ثالث عشرينه أكمل السلطان النفقة على المماليك قاطبة من قرانصة وجلبان ونادي لهم في الحوش أن السفر أول الشهر فاضطرب أحوال المماليك وارتجت القاهرة وعز وجود الخيل والبغال، وصارت المماليك يهجمون الطواحين ويأخذون منها الخيول والبغال والأكاديش، فغلقت الطواحين قاطبة وامتنع الخبز من الأسواق وكذلك الدقيق ووقع القحط بين الناس وضج العوام وكثر الدعاء على السلطان).

معركة مرج دابق :

وقعت في ٢٤أغسطس سنة١٥١٦م في شمال سوريا بين المماليك بقيادة السلطان الأشرف "قانصوه الغوري" والعثمانيين بقيادة السلطان "سليم الأول " وإليك رواية "ابن إياس" عن معركة مرج دابق (وفي يوم السبت سادس عشر شعبان ٩٢٢ هـ أشيعت هذه الكاينة العظيمة التي طمت وعمت وزلزلت لها الأقطار، فلما خرج السلطان من حلب توجه إلى حيلان فبات بها فلما أصبح يوم الأربعاء حادي عشرين رجب رحل السلطان من حيلان وتوجه إلى مرج دابق فأقام به إلى يوم الأحد خامس عشرين رجب وهو يوم نحس مستمر فما يشعر إلا وقد دهمته عساكر "سليم" شاه بن عثمان ... فقيل أول من برز للقتال الأتابكي سودون العجمي وملك الأمراء سيباي نائب الشام والمماليك القرانصة دون المماليك الجلبان، فقاتلوا قتالاً شديداً هم وجماعة من النواب فهزموا العثمانيين وكسروهم كسرة مهولة وأخذوا منهم سبعة سناجق ... فهم ابن عثمان بالهروب أو يطلب الأمان وكانت النصرة للمماليك أولاً وياليت لو تم ذلك.

ثم بلغ المماليك القرانصة أن السلطان قال لمماليكه الجلبان.

- لا تقاتلوا شيء وخلوا المماليك القرانصة تقاتل وحدهم.

وأغلب الظن أن هناك من قصد وقوع فتنة بين المماليك فأشاع أن الغوري قال ذلك، فلما بلغهم ذلك ثنوا عزمهم عن القتال، فبينما هم على ذلك وإذا "بالأتابكي سودون العجمي" قد قُتِل في المعركة وقُتِل ملك الأمراء سيباي بك نائب الشام فانهزم من في الميمنة من المماليك ثم إن "خاير بك" نائب حلب انهزم وهرب فكسر الميسرة...

خاين بك بدلاً من خاير بك:

وهكذا قام "خاير بك" بدوره المخطط ليفي بما قطعه على نفسه للسلطان " سليم الأول ".

ويقول "ابن إياس" عن ذلك (وممن كان موالسا على السلطان الغوري في الباطن "خاير بك" نائب حلب، فإنه أول من كسر عسكر السلطان، وانهزم عن ميسرته، وتوجه إلى حماه، ولما ملك ابن عثمان حلب أرسل خلفه.

فلما حضر إليه خلع عليه وصار من جملة أمرائه، ولبس زي التراكمة، وقص ذقنه.

وسماه السلطان العثماني (خاين بك) لكونه خان سلطانه وطاع ابن عثمان.

فلما جري ذلك تسحبت مماليك "خاير بك"، وتوجهوا إلى مصر، ودخل هو تحت طاعة ابن عثمان.

ويضيف "ابن إياس" : وكانت الهزيمة خذلاناً من الله تعالي للمماليك حتى نفذ القضاء والقدر، وانعقد بين العسكرين غباراً حتى صار لا يري بعضهم بعضاً وكان نهار غضب من الله تعالى قد انصب على المماليك وغلت أيديهم عن القتال . وقد أقامت هذه الوقعة من طلوع الشمس إلى بعد الظهر وانتهى الحال على أمر قدره الله تعالى فقتل في تلك الساعة من العثمانيين ومن المماليك ما لا يحصى عدده.

ومات "الغوري" في المعركة من شدة القهر بعد أن طلب من المماليك القتال وقال لهم:

- هذا وقت المروءة هذا وقت النجدة، قاتلوا وعلي رضاكم.

فأخذ يستغيث فلم يسمع له أحد، ويروي أن الغوري عندما رأي جيشه يفر من أمام عينيه وتحقق من الهزيمة أصيب بالشلل وطلب جرعة من الماء فجاءوا له بها ولكنه لم يتمالك نفسه وهوي من فوق صهوة فرسه ميتاً وداسته الخيل.

والغريب أنه لم يُعثَر له على جثة بعد المعركة.

واستمر "سليم الأول " يزحف بجيشه نحو مصر ويضم إليه كل ما يقابله من بلاد، وعندما تأكدت وفاة السلطان "الغوري" طلب الأمراء المماليك من الأمير "طومان باي" أن يتولى السلطنة.

- إن وصف "ابن إياس " للأحداث وصف ممتع وبليغ.

أسلوب "ابن إياس" الحنفي:

وقد قال عنه الأستاذ "محمد عبد الله عنان" ما يلي :

وفي هذا القسم من روايته، أعني تدوين حوادث عصره، وهو يشمل زهاء نصف قرن، من أواخر القرن التاسع إلى سنة ٩٢٨هـ، يبدي "ابن إياس" نوعاً من الطرافة والبراعة، ويبدي بالأخص دقة في الملاحظة، ومقدرة لا بأس بها في تحليل الأنفس والعواطف، وقد يرجع ذلك من بعض الوجوه إلى سير الحوادث نفسها وإلي المفاجآت والوقائع الغريبة التي قدر للمؤرخ أن

يشهدها في خاتمة حياته، فهي التي تغذيه خلال روايته بما يلاحظ وما يعلق، ونستطيع بالأخص أن نستخرج من رواية "ابن إياس " خلال المجتمع المصري في هذا العصر، وأن نتعرف هذا المجتمع المستهتر الطروب في بعض أثوابه الحقيقية، وأن نقرأ في سلوكه وتصرفاته كثيراً من عواطفه وميوله وبوادر نفسه، وأن نقف على صور شائقة من عاداته وأحواله الاجتماعية، وهذا ما تعرضه رواية الحوادث ذاتها، ولكن لابن اياس فضلاً في ذلك، هو أنه يعني في كثير من الأحيان بتدوين بعض أحوال الحياة الخاصة، وتتبع آثار الحوادث في نفس الشعب وطبقاته الاجتماعية المختلفة، فنري في روايته، طبقة الأمراء والأرستقراطية تتحكم في سائر الطبقات اجتماعياً واقتصادياً، ولا تبحث إلا عن تحقيق أهوائها ورفاهيتها، عاش الناس أم هلكوا، ونشعر بوحي القضاة وغيرهم من رجال الدين واضحاً في سياسة السلاطين، كما نراهم سند السلاطين في إباحة المصادرة ونهب الأرزاق والأموال، وإصدار ما يحقق أهواءهم من الفتاوي والأحكام، ونري الطبقة المتوسطة منكمشة لا تكاد تأخذ بقسط في مجري الحوادث، أما الطبقة الدنيا أو العامة فنراها صاخبة فائرة، تظهر في طليعة كل اضطراب، ولكنها كعادتها تهدأ وتختفي أمام القوة، ويتتبع "ابن إياس " حركات العامة بصفة خاصة، فيصف سلوكهم ونزعاتهم وعواطفهم من غضب ورضى ومرح واكتئاب، في نبذ ممتعة كثيراً ما تثير الابتسام، أما نظم السياسة والحكم والتشريع والإدارة فيعرضها "ابن إياس" في سياق روايته خير عرض، فيشرح لنا كيف كان يلي السلطان العرش ويباشر الحكم بنفسه أو على يد خاصته وأمرائه، وكان نظام البلاط والحكومة يومئذ من أغرب النظم الملوكية التي

عرفت، يمتزج فيه التشريع والتنفيذ والقضاء، وسلطات الحرب والمالية في صعيد واحد.

ونري مما يذكر إلى أي حد كانت دولة المماليك الشراكسة تمعن في المركزية والاستئثار بالسلطات... كذلك يصف التقلبات الاقتصادية من غلاء ورخاء، ، وعلي الجملة فإنه يصور لنا في سياق روايته مجتمع عصره سواء في الحياة العامة أو الخاصة أو في الخلال والعادات، والميول والأهواء تصويراً قوياً شائقاً.

حوادث الفتح العثماني آخر ما دون قلم "ابن إياس":

من حسن الحظ أنه عاصر نهاية المماليك وبداية العصر العثماني...

فكانت حوادث الفتح العثماني آخر ما دون قلم "ابن إياس" فهو يصل في روايته حتى خاتمة سنة ٩٢٨هـ - ١٥٢٢م – ونحن نعرف أن المؤرخ توفي بعدئذ بقليل سنة ٩٣٠هـ - - فهو يترك لنا عن هذه الحوادث الشهيرة سجلا يوميا مسهباً يستند إلى تحقيق المعاصرة والمشاهدة، وهو لا يمهد فيه إلى الحوادث، ولا يعني بربطها بل يدونها مرسلة كما وقعت ويحصي آثارها إحصاء من رأي وسمع، وكل ما هنالك ان "ابن إياس " يطلق العنان لشعوره وعواطفه، فنراه يحمل على السفاكين والظلمة في عبارات شديدة وأحياناً مؤثرة، - -ويفيض في تفاصيل الواقعة الهائلة التي نشبت بين الغزاة وبين الجيش المصري في مرج دابق سنة ١٥١٦م وما أوقعه الغزاة بعسكر مصر من سفك ونهب، ويصف صدي النكبة في القاهرة وكيف قام (نعي السلطان في ذلك اليوم ونعي الأمراء والأعيان الذين قتلوا وصار في كل حارة

وزقاق وشارع في القاهرة صراخ وبكاء، ورجت القاهرة وضجت الناس واضطربت الأحوال وكثر القيل والقال) ثم يقف المؤرخ قليلاً ليصف السلطان الغوري وخلاله ويعدد مثالبه ومآثره وينظم في ذلك قوله :

طالعت تاريخ الملوك فلم أرى ... فيما سمعت حوادثاً مما جرى
لا زالت الأيام يبدو فعلها ... بعجائب وغرائب بين الورى
لكن هذه وقعة ما مثلها ... سبقت لسلطان ولا متأمرا
والأشرف الغوري كان مليكنا ... لكنه قد جار فينا وافترى
أعماله ردت عليه بما جنى ... والدهر جازاه بأمر قدرا

طومان باي يتولي حكم مصر بعد تأكد مقتل الغوري:

تولي السلطان الأشرف "طومان باي" حكم مصر سنة ١٥١٦م بعد مقتل السلطان "الغوري" وقد أجمع معظم المؤرخون أنه كان سلطاناً عالي الهمة وقليل الأذى للرعية، وقد كان السلطان الغوري قد عينه نائباً له في مصر قبل أن يتجه إلى لقاء العثمانيين في مرج دابق بشمال سوريا، وعندما تأكدت وفاة الغوري خلال المعركة طلب الأمراء في مصر من "طومان باي" أن يتولى السلطنة ،(ولقد تمنع "طومان باي" عن قبول السلطنة مدة خمسين يوماً إلا أنه قبلها بعد ذلك تحت ضغط)، ويقول المؤرخ الأستاذ عبد المنعم ماجد عنه : (وحين تولى "طومان باي" السلطنة كانت البلاد في

أقصى درجات التدهور والدولة المملوكية في أخر رمق، نتيجة لعوامل متعددة، إذ قد استشرى الفساد في كيان الدولة المملوكية... وكأنها حتمية النهاية، ولم يعد هناك أي أمل في استنقاذها)، وبالرغم من كل هذه المعوقات حاول "طومان باي" أن يستعد للحرب الحتمية (بينما رفض أن يأخذ أموال الناس قهراً أو من أي سبيل حتى لا تحدث في أيامه مظلمة أبداً)، وكان الخليفة والقضاة والعلماء قد حضروا المعركة مع السلطان الغوري وأصبحوا في قبضة السلطان "سليم الأول " بعد المعركة، وحدث أن فر أحد القضاة الأربعة وعاد إلى مصر فتبقي مع السلطان "سليم الأول"، الخليفة وثلاثة من القضاة.

ويقول "ابن إياس" : وأما ما كان من أمر "سليم شاه ابن عثمان" فإنه أقام بالميدان الذي في حلب فتوجه إليه أمير المؤمنين المتوكل على الله والقضاة الثلاثة وهم قاضي القضاة الشافعي كمال الدين الطويل وقاضي القضاة محيي الدين الدميري المالكي وقاضي القضاة شهاب الدين الفتوحي الحنبلي ، وأما قاضي القضاة محمود بن الشحنة فإنه هرب مع العسكر إلى الشام ونُهِب جميع بركه وقماشه، ودخل إلى الشام في أنحس حال.

وقيل لما دخل أمير المؤمنين علي ابن عثمان وهو بالميدان عظمه، وأجلسه وجلس بين يديه فأشيع أنه قال له:

- أصلكم من أين؟
- من بغداد.
- نعيدكم إلى بغداد كما كنتم.

والأقوال في ذلك كثيرة، فلما أراد الخليفة الانصراف خلع عليه خلعة

سنية من ملابسه، وأنعم عليه بمال له صورة ورده إلى حلب، ووكل به ألا يهرب، وقيل لما دخل على ابن عثمان القضاة الثلاثة المذكورون وبخهم بالكلام، وقال لهم :

- أنتم تأخذون الرشوة على الأحكام الشرعية، وتسعون بالمال حتى تتولوا القضاء، وما منكم من أحد يرشد إلى الخير، لأنكم لم تمنعوا سلطانكم عن المظالم التي كان يفعلها بالناس، وأنتم ترون ذلك منه ولا تنكرونه.

وأشاعوا من هذه الأخبار العجائب والغرائب، والمعول في ذلك على الصحة.

وأخبرني من رأي "سليم شاه ابن عثمان" أنه مربوع القامة، واسع الصدر، وافر الأنف ملئ الجسد حليق اللحية ليس له غير الشوارب، كبير الرأس عمامته صغيرة دون عمائم أمرائه، فلما جاء إلى حلب سلمه أهلها المدينة من غير نزاع، وهرب نائب قلعة حلب، وتوجه إلى الشام مع العسكر، وترك أبواب قلعة حلب مفتوحة،

وعندما دخل السلطان " سليم الأول " حلب، خُطِب باسمه ودُعِي له على المنابر وزُينت له المدينة وأوقدت له الشموع على الدكاكين، وارتفعت له الأصوات بالدعاء وفرح الناس به فرحا شديداً، وانتهى إليه الخواجا إبراهيم السمرقندي والخواجا يونس العادلي والعجمي الشنقجي، وكان هؤلاء من أخصاء الغوري، وكانوا مع ابن عثمان في الباطن، ويكاتبونه بأحوال السلطان وما يقع من أخبار المملكة، فلما فُقِد السلطان "الغوري" أظهروا عين المحبة لابن عثمان وصاروا يحطون على الغوري ويذكرون

أخباره الشنيعة لابن عثمان، وصاروا من جماعته ونسوا إحسان الغوري إليهم كما يُقال في المعني :

لقاء أكثر من يلقاك أوزارُ فلا تبالي أصدوا عنك أو زاروا
أخلاقهم حين تبلوهن أوعار وفعلهم منكر للمرء أو عارُ
لهم لديك إذا جاءوك أوطار إذا قضوها تنحوا عنك أو طاروا

اجتماع السلطان "طومان باي" بالأمراء

كان السلطان "طومان باي" في ورطة حقيقية، فقد نفذت الأموال، والمماليك يطلبون النفقة دائماً وذهب "الغوري" بخيرة الرجال في مرج دابق وظهر كل أمير على حقيقته بعد الانتصار الساحق للعثمانيين، وخاصة "خاير بك" نائب حلب الذي كان السبب الرئيس في الهزيمة عندما انسحب بميسرة الجيش بالكامل بدون أي مبرر.

وقد فكر "طومان باي" بعمق فيما حدث فوجد أن خيانة "خاير بك" جاءت في الوقت الذي ناسب "سليم الأول " وبالتالي فقد تتعدد الخيانات بعد ذلك ولكن طبقاً للأوقات المحددة لها، فكأن "سليم الأول" قد اشترى كل من حول "الغوري" إلا القليل، وحدد لكل منهم دوره وتوقيت تنفيذه، وبالتالي لم يعد يثق "طومان باي" فيمن حوله، لذلك رفض السلطنة من البداية، ولكنه اضطر لقبولها في النهاية، فلابد من وجود سلطان يستكمل رحلة الغوري للنهاية.

وقال "طومان باي" لمن حوله من الأمراء عند اجتماعه بهم :

- لم يعد هناك مال للنفقة على المماليك.

فقال أحدهم :

- فلتجمع الأموال من الشعب لصد العدو يا مولاي.

- الأمر لم يعد يحتمل جمع أي أموال، فلنخرج لنقاتل "ابن عثمان" لندافع عن بلادنا دون أن ينتظر أحد منا مقابل لذلك.

- ولكن المماليك لن يخرجوا للقتال بغير نفقة كما تعلم يا مولاي.

- لقد أعطاهم السلطان "الغوري" رحمه الله ما يريدون فماذا كانت النتيجة؟ إنه لم يُدفن حتى في المقبرة التي أعدها لنفسه ولم يتم العثور على جثمانه بعد المعركة، على أي حال سنستعد للقتال بالإمكانيات المتوفرة وليبذل كل منا أقصي طاقة له.

ويقول "ابن إياس" (... ثم في ذلك اليوم عرض السلطان "طومان باي" عجلات من خشب تجرها أبقار وفيها رماة بالبندق الرصاص، فكانوا نحو ثلاثين عجلة أو فوق ذلك وعرض جمالاً وفوقها مكاحل ورجال يرمون بالبندق الرصاص من المكاحل فوق ظهور الجمال... فقوي قلب العسكر في ذلك اليوم على القتال... وأظهر السلطان أنه يخرج بنفسه إلى قتال ابن عثمان واستحث بقية الأمراء على الخروج بسرعة ولم ينفق على الأمراء شيئاً وقال لهم :

- اخرجوا قاتلوا عن أنفسكم وأولادكم وأزواجكم فإن بيت المال لم يبق فيه لا درهم ولا دينار وأنا واحد منكم.

الرسالة المرعبة :

أرسل السلطان "سليم الأول " رسالة إلى السلطان "طومان باي" يدعوه فيها للتسليم كما أرسل رسائل أخري للأمراء، وهكذا جاء عرض حكم مصر ل "طومان باي" كنائب ل "سليم الأول" في مصر، لتصبح مصر ولاية تابعة للسلطنة العثمانية ويصبح "طومان باي" والي عليها.

ولكن هناك فرق كبير بين مصر كسلطنة ومصر كولاية، وهذا الفرق يعرفه "طومان باي" جيداً فكيف لمصر التي كانت فاعل مهم في المنطقة تتحول إلى مفعول به، وكيف يرضي سلطان مصر والشام والحجاز وملك البرين والبحرين وخادم الحرمين الشريفين، كيف له أن يصبح مجرد نائب للسلطان العثماني، فهل بالفعل لم تعد الدولة المملوكية قادرة على تحمل مسئوليتها تجاه العالم الإسلامي، وهل عليها أن تسلم القيادة لدولة إسلامية أخري، أكثر قوة وعزة ومجد وسيادة، هل وصل المماليك إلى مرحلة من الفساد والانحطاط لا يمكن تداركها إلا بالاستئصال والاستبدال؟

كل هذه الأسئلة والأفكار دارت في عقل السلطان "طومان باي"، منذ أن وصلته رسالة "سليم الأول"، وإليك بعض ما ذكره "ابن إياس" عن هذه الرسالة أو المطالعة على حد تعبيره :

(فالذي أشيع عن مطالعة السلطان غالب ألفاظها باللغة التركية، فكان من مضمونها :

من مقامنا السعيد إلى الأمير "طومان باي"..

أما بعد فإن الله تعالى قد أوحى إليَّ بأن أملك الأرض من المشرق إلى

المغرب كما ملكها الإسكندر ذو القرنين..

إنك مملوك منباع مشترى ولا تصح لك ولاية وأنا ملك ابن ملك إلى عشرين جد وقد توليت الملك بعهد من الخليفة ومن قضاة الشرع، وأني أخذت المملكة بالسيف بحكم الوفاة من السلطان الغوري، فاحمل لي خراج مصر في كل سنة كما كان يحمل لخلفاء بغداد... وأنا أولى منك بخدمة الحرمين الشريفين، وإن لم تدخل تحت طاعتنا وإلا أدخل إلى مصر وأقتل جميع من بها من الأتراك " المماليك " حتى أشق بطون الحوامل وأقتل الجنين الذي في بطنها من الأتراك "وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا")

وقد أحدثت هذه الرسالة وقعاً مخيفاً ومرعباً لدي الأمراء بل والشعب المصري كله فقد انتشر محتواها بين الناس وقد تركت أثراً نفسياً بالغاً عند "طومان باي" نفسه، ورغم كل هذا رفض "طومان باي" عرض " سليم الأول " وأصر على أن مصر سلطنة وليست ولاية تابعة ولن تكون كذلك، وأنه سلطان مصر وسيدافع عنها حتى الموت، وأخذ يشحذ الهمم ويشجع المماليك ويعد العدة ويستعرض القوات استعداداً لملاقاة العثمانين.

ويقول "ابن إياس " : وأشيع أن "خاير بك" نائب حلب، الذي عصى ودخل تحت طاعة ابن عثمان، أرسل مطالعات إلى بعض الأمراء المقدمين، وهو يرغبهم في الدخول تحت طاعة ابن عثمان، وشرع يُطنب في محاسنه وعدله بين الرعية، وأنه إذا دخل مصر يُبقي كل أحد من الأمراء على وظيفته وعلي رزقه، وكل هذا حيل وخداع، حتى يتمكن من الدخول إلى مصر.

معركة الريدانية (منطقة العباسية الحالية) :

وقعت معركة الريدانية بتاريخ ٢٩ ذي الحجة سنة ٩٢٢ الموافق ٢٢ يناير ١٥١٧ م، بين السلطان المملوكي "طومان باى" والسلطان "سليم الأول" العثماني عندما قرر الأخير التوجه بجيشه صوب مصر بجيش مقداره مئة وخمسون ألفا مقاتل ومعه الكثير من المدافع العثمانية الصنع، واشترى " سليم الأول " عدّة آلاف من الجمال وحمّلها مقادير وافرة من المياه ليشرب منها جنده وهم يجتازون الصحراء قاطعا صحراء فلسطين، وقد نزلت الأمطار على أماكن سير الحملة مما يسرت على الجيش العثماني قطع الصحراء الناعمة الرمال وذلك بعد أن جعلتها الأمطار الغزيرة متماسكة مما يسهل اجتيازها، وفي أثناء عبور الجيش العثماني للصحراء تعرض إلى غارات البدو، وتابع العثمانيون زحفهم نحو مصر، فاحتلوا مدينة غزة على الطريق وساروا عابرين صحراء سيناء حتى وصلوا بالقرب من القاهرة، وكان السلطان "طومان باي" مرابطًا في الريدانيّة، وكانت قرية صغيرة تقع على الطريق المؤدية إلى القاهرة، وجمع "طومان باي" حوالي ٩٠ ألف جندي نصفهم من أهالي مصر والنصف الآخر من العسكر المماليك، وقد استقدم "طومان باي" ٢٠٠ مدفع ووضعها في الريدانية، وحفر خندقًا على طول الخطوط الأمامية، ووضع مدافعه الكبيرة وأعد أسلحته وبنادقه وحاول شحذ همة مماليكه وقواته ولكن دون جدوى.

فقد جبن كثير منهم عن اللقاء حتى كان بعضهم لا يقيم بالريدانيّة إلا في خلال النهار حتى يراهم السلطان، وفي المساء يعودون إلى القاهرة للمبيت في منازلهم.

ولم يكن من شأن جيش كهذا أن يثبت في معركة أو يصمد للقاء أو يتحقق له النصر، فحين علم "طومان باي" وهو في الريدانية بتوغل العثمانيين في الأراضي المصرية حاول جاهدًا أن يقنع أمراءهِ بمباغتة العثمانيين عند الصالحية، وهم في حالة تعب وإعياء بعد عبورهم الصحراء، لكنهم رفضوا، معتقدين أن الخندق الذي حفروه بالريدانيّة كفيل بحمايتهم ودفع الخطر عنهم، لكنه لم يغن عنهم شيئاً.

وقام السلطان العثماني بعملية تمويهية بعد اكتشافه للخطة المصرية، بأن أظهر نفسه سائرا نحو العادلية على الطريق للريدانية ولكنه التف بسرعة حول جبل المقطم ورمى بكل ثقله على المماليك بالريدانية من الخلف وكانت تلك حيلة "جان بردي الغزالي" الذي أبلغ "خاير بك" ذلك، فوقعت المواجهة بتاريخ ٢٩ ذي الحجة ٩٢٢ الموافق٢٢ يناير ١٥١٧م.

والتحم الفريقان في معركة هائلة، وعلى الرغم من عدم رغبة بعض أمراء المماليك في القتال، فقد أبدى فرسان المماليك شجاعة كبيرة في ذلك اليوم، فلم تكد المعركة تبدأ حتى كرّت ثلّة من فرسان المماليك المدججين بالسلاح الكامل على قلب القوّات العثمانية حيث كانت تخفق راية السلطان الخاصة، وكان على رأس الثلّة السلطان "طومان باي" نفسه.

والواقع أن السلطان "سليم" نجا من محاولة لقتله، فقد أخطأ "طومان باي" بينه وبين الصدر الأعظم "سنان باشا الخادم"، حيث قبض عليه وقتله بيده ظنًا منه أنه السلطان سليم.

غير أن ما أقدم عليه سلطان المماليك لم ينفع شيئاً، فذهبت كل جهوده أدراج الرياح أمام المدافع العثمانية، فاضطر "طومان باي" ومن بقى

معه إلى الانسحاب إلى نواحي الفسطاط، تاركين في ساحة الريدانية آلاف القتلى.

وبدأ السلطان "سليم" الإستعدّاد لدخول القاهرة، وكان الثمن الذي دفعه كلاً من العثمانيين والمماليك في هذه الحرب باهظًا للغاية، إذ بلغ مجموع خسائر الفريقين من الجنود حوالي ٢٥,٠٠٠ مقاتل.

رواية "ابن إياس" عن معركة الريدانية :

ودعنا نستمتع معاً بما كتبه "ابن إياس" عن هذه المعركة حيث قال :

فلما كان يوم الخميس تاسع عشرين ذي الحجة فيه وقعت كاينة عظيمة تذهل عند سماعها عقول أولي الألباب وتضل لهولها الآراء عن الصواب. زحف عسكر ابن عثمان ووصل أوائله إلى الجبل الأحمر فلما بلغ السلطان "طومان باي" ذلك زعق النفير في الوطاق (المعسكر) ونادى السلطان للعسكر بالخروج إلى قتال عسكر ابن عثمان... فركبت الأمراء المقدمون ودقوا الطبول حربياً وركب العسكر قاطبة حتى سد الفضاء وأقبل عسكر ابن عثمان كالجراد المنتشر وهم السواد الأعظم فتلاقى الجيشان في أوائل الريدانية فكان بين الفريقين وقعة مهولة يطول شرحها أعظم من الوقعة التي كانت في مرج دابق...

حتى انكسر عسكر مصر ووليّ مدبراً وتمت عليه الكسرة فثبت بعد الكسرة السلطان "طومان باي ".. وهو يقاتل بنفسه في نفر قليل من الرماة والمماليك السلحدارية، فلما تكاثر عليه العثمانية ورأى العسكر قد قل من

حوله خاف على نفسه أن يقبضوا عليه فطوى الصنجق السلطاني ووليّ واختفى، وهكذا انتهت معركة الريدانية بهزيمة ساحقة للمماليك ودخل "سليم الأول " مصر منتصراً.

حرب عصابات :

ظل السلطان "طومان باي" يقاوم الجيش العثماني ويجمع المماليك ويقاتل في عدة أماكن بأسلوب حرب العصابات حتى تسبب في إزعاج وإرباك السلطان "سليم الأول " واضطراب أحوال جيشه وبذل "طومان باي" جهد غير عادي للتضييق على العثمانيين في مصر وكان المصريون كما يصف "ابن إياس" في حالة ضيق شديد مما يفعله الجيش العثماني بمصر وسكانها حتى قيل في ذلك المعنى:

نبكي على مصر وسكانها قد خربت أركانها العامرة
وأصبحت بالذل مقهورة من بعد ما كانت هي القاهرة

وبالرغم من محاولات "طومان باي" في لم شمل المماليك والهجوم في عدة مواقع على العثمانيين إلا أنه كان يفشل في كل مرة، وعلق على ذلك "ابن إياس" (فاستمر السلطان "طومان باي" - يقع - مع عسكر ابن عثمان ويقتل منهم في كل يوم ما لا يحصي عددهم... فرأى عين الغلب وقد تكاسل العسكر عن القتال واختفوا في بيوتهم وتفرقت الأمراء واستمر السلطان

يقاتل وحده بمفرده في نفر قليل... وكان قليل الحظ غير مسعود الحركات في أفعاله فكان كما يقال :

قليل الحظ ليس له دواء ..... ولو كان المسيح له طبيب

وكان السلطان، كلما رام أن ينتصر على ابن عثمان ينعكس فكان كما يقال في المعنى

إذا لم يكن عون من الله للفتى ..... فأول ما يجني عليه اجتهاده

النهاية على باب زويلة :

كان من الطبيعي أن يختفي السلطان "طومان باي" بعد أن تفرق المماليك من حوله وبدا له مما لا يدع مجالاً للشك مدي تكاسلهم عن القتال فذهب "طومان باي" إلى بعض من يثق به من معارفه ولكن للأسف تم العثور عليه ولم يصدق الناس خبر القبض على السلطان "طومان باي" مما أدي إلى أن أمر السلطان " سليم الأول " بشنقه على باب زويلة حيث اعتاد الحكام شنق القتلة وقاطعي الطرق.

ويقول "ابن إياس " : فلما شنق وطلعت روحه صرخت عليه الناس صرخة عظيمة وكثر عليه الحزن والأسف فإنه كان شاباً حسن الشكل سنه نحو أربع وأربعين سنة وكان شجاعاً بطلاً تصدى لقتال ابن عثمان وثبت وقت الحرب وحده بنفسه، وكان ملكاً حليماً قليل الأذى كثير الخير وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية ثلاثة أشهر وأربعة عشر يوماً،

وكان في هذه المدة في غاية التعب والنكد وقاسي شدائد ومحناً وحروباً وشروراً وهجاجاً من البلدان وأخر الأمر شنق على باب زويلة وأقام ثلاثة أيام وهو معلق على الباب حتى جافت رائحته... وفي اليوم الثالث أنزلوه فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه ومضت أخباره كأن لم يكن.

جثة مصر أم جثة "طومان باي" :

ويري الكاتب الكبير "محمود السعدني" أن التي تدلت من الحبل على باب زويلة لم تكن جثة "طومان باي" بل كانت جثة مصر حيث دخلت في عصر جديد مختلف تماما وإليك بعض ما كتبه الأستاذ السعدني في هذا المعنى:

أما "طومان باي" فقد هرب لدى بعض العربان فسلموه للسلطان "سليم" شاه وعندما التقى الرجلان ظل السلطان "طومان باي" رافع الرأس مصراً على أنه سلطان مصر ولا أحد سواه وكان جزاؤه الشنق على باب زويلة حيث اعتاد السلاطين شنق اللصوص والشطار، ولكن التي تدلت من الحبل لم تكن جثة "طومان باي" ولكنها كانت في الحقيقة جثة مصر، ولقد ماتت قروناً طويلة قبل أن يكتب لها البعث من جديد وجاء السلطان العثمانلي ودخلت مصر في سرداب التاريخ وتحولت من سلطنة إلى ولاية وخيم عليها الظلام وأصابها الضمور وإذا كان السلطان العثمانلي قد قطع رأس سلطان المماليك فقد أبقى على المماليك أنفسهم، ولم يلبث هؤلاء أن تزيوا بزي العثمانلي ورطنوا بلسانه واشتغلوا تحت رايته.

العثمانيون يسيطرون على مصر :

وهكذا سيطر السلطان " سليم الأول " على مصر، وأصبح صاحب الكلمة النافذة فيها، وتحولت مصر إلى ولاية تابعة للعثمانيين وجزء من دولتهم الكبري ولكن كان عصر السلطان " سليم الأول " يختلف عن عصور من سبقوه من سلاطين بني عثماني، وإذا تأملنا معاً العصور السابقة وعصر "سليم الأول" وعلاقته بمصر سنجد أن مصر إلى حد كبير لم تنعم بعصر ازدهار العثمانيين بل كان انضمامها إليهم مع بداية عصر اضمحلالهم تقريباً.

وبعبارة أخرى لم تذق مصر حلاوة العثمانيين ولكنها تجرعت مرارتهم وهذا يفسر سر كراهية العديد من المصريين لفترة الحكم العثماني لمصر ويحكم على الدولة العثمانية بالكامل من خلال عصرها الأخير فقط، فلم تكن مصر تحت الحكم العثماني أيام السلاطين الأوائل العثمانيين من أمثال "عثمان الأول" مؤسس الدولة وأورخان ومراد الأول وبايزيد الأول ومحمد جلبي ومراد الثاني ومحمد الفاتح فقد كان هؤلاء السلاطين معاصرين لفترة تواجد الخلافة العباسية في مصر في ظل السلطنة المملوكية القوية المزدهرة في ذلك الوقت بمعني أن سلاطين بني عثمان وسلاطين المماليك كانوا يجاهدون في سبيل الله ولكن مع اختلاف أماكن القتال فقد كان العثمانيون يجاهدون في الغرب الأوروبي بينما كان المماليك يواجهون الخطر المغولي والصليبي في الشرق وكانت بين الدولتين علاقات حميمة وكانوا يتبادلون الرسائل كلما حدثت أمور مهمة، بل إن قبل ذلك بفترة وتحديداً في عصر السلطان المملوكي الظاهر برقوق أرسل السلطان

العثماني بايزيد الأول رسالة إلى الخليفة العباسي في القاهرة يطلب منه فيها أن يمنحه لقب سلطان الروم نظراً لأنه فتح الكثير من البلاد الرومية وسيطر عليها، واتخذ بايزيد لقب سلطان الروم كدليل على وراثته لدولة السلاجقة وسيطرته على كل شبه جزيرة الأناضول، كما أرسل إلى الخليفة العباسي المقيم بالقاهرة يطلب منه أن يقر هذا اللقب حتى يتسنى له بذلك أن يسبغ على السلطة التي مارسها هو وأجداده من قبل طابعاً شرعياً رسمياً فتزداد هيبته في العالم الإسلامي، وقد تعاونت الدولتان المملوكية والعثمانية من قبل تعاون عسكري فيما بينهما فمن الثابت تاريخياً أن الدولة العثمانية أرسلت إمدادات ومعونات عسكرية للدولة المملوكية في مواجهة الخطر الصليبي فقد طلب السلطان الغوري المعونة من السلطان بايزيد الثاني ليتمكن من قتال الأسطول البرتغالي، وأرسل في شهر شوال سنة ٩١٦ هـ / ١٥١١ م عدة سفن محملة بالمدافع والمكاحل والأسهم وأربعين قنطراً من البارود وغير ذلك من المستلزمات العسكرية والأموال اللازمة ولكن هذه المساعدة لم يكتب لها الوصول سالمة بسبب تعرضها لقرصنة فرسان القديس يوحنا.

وعندما عجزت الدولة المملوكية عن القيام بمسئولياتها تجاه الإسلام ومواجهة أعداء الأمة نتيجة للفساد الذي انتشر بها قرر العثمانيون ضم مصر وتوحيد الجبهة الإسلامية، وهنا بدأ الحكم العثماني لمصر في مرحلة حرجة ومفترق طرق حيث أنه لم يمض وقتاً طويلاً بعد ضم مصر حتى بدأت الدولة العثمانية نفسها تدخل في عصر اضمحلال ولذلك نجد أن مصر لم تشاهد من العثمانيين إلا فترات جمود وضعف بعد ذلك وتم إهمال شئونها الداخلية وتحكم فيها المماليك مرة أخري.

"سليم الأول" وتحويل الدفة:

وعندما تولي السلطان " سليم الأول " العرش العثماني سنة ٩١٨ هـ قام بتغيير السياسة العثمانية بشكل ملحوظ، فقد توقف في عهده الزحف العثماني نحو الغرب الأوروبي أو كاد أن يتوقف واتجهت الدولة العثمانية اتجاها شرقياً نحو المشرق الإسلامي ،وكان تحرك الدولة العثمانية نحو المشرق، من أجل إنقاذ العالم الإسلامي بصورة عامة والمقدسات الإسلامية بصورة خاصة من التحرك الصليبي الجديد من الإسبان في البحر المتوسط والبرتغاليين في المحيط الهندي وبحر العرب والبحر الأحمر الذين أخذوا يطوقون العالم الإسلامي ويفرضون حصاراً اقتصادياً حتى يسهل عليهم ابتلاعه، وأصبحت الدولة المملوكية تعاني في أخر أيامها من أزمات اقتصادية حادة بسبب هذا الحصار الاقتصادي فضلاً عن تفشي الفساد بها، ومن أسباب توجه العثمانيون أيضاً نحو المشرق الإسلامي تزايد قوة الشيعة في إيران " الدولة الصفوية " مما أنذر ببسط النفوذ الشيعي على العالم الإسلامي السني وهذا ما دفع العثمانيون إلى الخروج إلى المشرق العربي لحماية آسيا الصغرى بصفة خاصة والعالم السني بصفة عامة وقد وجد "سليم الأول" تهاوناً كبيراً من الدولة المملوكية في مكافحة الشيعة في إيران بل إن هناك معلومات خطيرة وصلت إليه تؤكد أن هناك علاقات ورسائل متبادلة بين المماليك والدولة الصفوية الشيعية في إيران، في آخر أيام المماليك بالطبع ومن هنا قرر "سليم الأول" ضم الدولة المملوكية التي ناصبته العداء ليضمن حماية ظهره قبل أن يتفرغ تماماً لقتال الدولة الصفوية ونجح في ذلك أيما نجاح.

رسالة تشجيع من سوريا:

ومما شجع " سليم الأول " على قتال المماليك، تفشى ظلم الدولة المملوكية بين الناس ورغبة أهل الشام وعلماء مصر في التخلص من الدولة المملوكية والانضمام إلى الدولة العثمانية فقد اجتمع العلماء والقضاة والأعيان والأشراف وأهل الرأي من الشعب وتباحثوا في حالهم ثم قرروا أن يتولى قضاة المذاهب الأربعة والأشراف كتابة عريضة نيابة عن الجميع يخاطبون فيها " السلطان العثماني " سليم الأول " ويقولون أن الشعب السوري ضاق بالظلم المملوكي وإن حكام المماليك يخالفون الشرع الشريف وإن السلطان إذا قرر الزحف على السلطنة المملوكية فإن الشعب سيرحب به، ولقد تلقى المماليك الهزيمة... وهم في شيخوخة دولتهم ومن أخر صفحة من صفحات تاريخهم كقوة إسلامية كبرى سواء في الشرق الأوسط أو في العالم فقد كانوا قد فقدوا حيويتهم وقدرتهم على تجديد شبابهم فكان أن زالت دولتهم وذهبت البلاد التي كانت تحت حكمهم للنفوذ العثماني وهكذا أمسك العثمانيون بعجلة القيادة في العالم الإسلامي بعد أن تم انتزاعها من أيدي المماليك.

إجراءات " سليم الأول " في مصر :

أقام " سليم الأول " في مصر ثمانية أشهر إلا أياماً قلائل ولاحظ مدى ما وصلت إليه مصر من تقدم وتطور في جميع المجالات مما يؤهلها إلى أن تصبح قوة عظمى لولا الفساد الذي انتشر بين حكامها، واستطاع السلطان " سليم الأول " أن يعرف قدرات مصر وعرف ما الذي يمكن أن

تقدمه لمن يحكمها من إمكانيات جبارة ولذلك قرر بعض الإجراءات تجاهها وأهمها توزيع السلطة بين عدة جهات بحيث لا يسيطر شخص واحد على السلطة كلها في يده وقد وضع " سليم الأول " قاعدة لنظام الحكم في مصر وهي إيجاد سلطتين تتنازعان الحكم وتراقب كلتاهما الأخرى، الأولي سلطة نائب السلطان " الوالي " والثانية سلطة رؤساء الجند ووضع أيضاً نواة السلطة الثالثة وهي سلطة البكوات المماليك الذي رجع إليهم حكم مديريات القطر المصري.

نفوذ المماليك من سلاطين إلى بكوات :

وهذا النظام في الحكم لم يستمر كما وضعت قواعده ولم يكن للديوان الكبير ولا للديوان الصغير عمل منظم في إدارة الحكومة بل تركت البلاد تتقسمها رؤساء الجند والولاة وانتهز المماليك فرصة استمرار التنازع والحروب بين الفريقين فأخذوا يعملون على الانفراد بالحكومة فنظام الحكم السياسي في مصر قد تطور مع الزمن وانتهى التنافس بين السلطات الثلاث إلى تغلب البكوات المماليك، فاستأثر المماليك بالنفوذ والحكم وساعدهم على ذلك ما صارت إليه السلطنة العثمانية من الضعف بسبب حروبها المتواصلة واختلال شئونها الداخلية وفساد نظام الحكم فيها وزاد في نفوذهم كثرة تغيير الولاة العثمانيين وعزلهم.

انتقال الثروة من مصر إلى اسطنبول :

نقل " سليم الأول " كل ما له قيمة في مصر من أموال وكنوز وأسلحة وخاصة ما كان بالقلعة من خزائن المال والكتب إلى اسطنبول، وحمله إلى اسطنبول بالطريق البري على آلاف الجمال وفي أعداد لا تحصى من المراكب وفي سبيل القضاء على مقومات مصر الحضارية سعى "سليم" إلى أن يفرغها من كل نابه فيها، فسحب منها رجالها الحاذقين في المهن والحياة الحضارية ليحملهم معه إلى اسطنبول، فيذكر المؤرخ "ابن إياس " أسماء الذي تقرر سفرهم من مصر إلى اسطنبول حيث خصص فصلاً في كتابه لمن توجه منهم إلى القسطنطينية على حد قوله وهم من جميع نواحي مصر من المسلمين والقبط واليهود على السواء منهم أصحاب الحرف والصناعات كالمهندسين والبنائين والنجارين والحدادين والسباكين والفعلة حيث أخذ "سليم" من هؤلاء جماعة كبيرة جداً لا يمكن حصر أعدادهم كذلك أخذ "سليم" الحذاق من صناع الزردخانة أي السلاح والذين يشتغلون بصناعة النسيج... كما أخذ جماعة من التجار ومن هنا يتضح أن إجراءات " سليم الأول " التي اتخذها نحو مصر كان الغرض منها إفقادها أسباب القوة حتى لا تقوم لها قائمة بعد ذلك قد تشكل خطراً على دولته أو قد يكون السبب هو محاولة نقل الحضارة المصرية إلى اسطنبول.

كما انتقلت الخلافة من العباسيين إلى العثمانيين ليتم الجمع بين السلطنة والخلافة بالرغم من أن الخلافة كانت في هذه الفترة مجرد رمز لتوحيد الأمة ولم يكن للخليفة العباسي نفوذ مؤثر على السلطنة بل إن

تحول الخلافة إلى مجرد رمز قد حماها من الإلغاء لفترة طويلة فقد تعاقبت الدول التي سيطرت على الأمة الإسلامية دون أن تتأثر الخلافة العباسية بها فسيطرت على الأمة لحين من الدهر الدولة الطولونية والدولة الإخشيدية ثم الأيوبية ثم المماليك بل قامت أيضاً الدولة العثمانية وازدهرت في عصر الخلافة العباسية ولم تتأثر الخلافة العربية القريشية بكل هذا التقلب بين الدول إلى أن تم ضم مصر إلى الدولة العثمانية فتحولت الخلافة إليها.

خاير بك على عرش مصر :

قام السلطان " سليم الأول " بتعيين نائب له في مصر من العثمانيين وهو الوزير يونس باشا، ثم استبدله قبل رحيله من مصر ب "خاير بك" ليصبح "خاير بك" والي على مصر ونائب السلطان " سليم الأول " ويقول "ابن إياس " : ومن العجائب أن مصر صارت نيابة بعد أن كان سلطان مصر أعظم السلاطين في سائر البلاد قاطبة لأنه خادم الحرمين الشريفين، وحاوي ملك مصر الذي افتخر به فرعون اللعين (أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون)، وقد تباهي بملك مصر على سائر ممالك الدنيا، وأشيع أن ابن عثمان خرج من مصر ومعه ألف جمل محملة ما بين ذهب وفضة، هذا خارجا عما غنمه من التحف والسلاح.

ثم إن "خاير بك" أعطى الأمان للمماليك الجراكسة، ونادي بأن يظهروا وعليهم أمان الله تعالي، فظهر منهم الجم الكثير كما يقول "ابن إياس " وهم

في أسوأ حال في زي الفلاحين، وعليهم زنوط قرع وقمصان بأكمام كبار، فإذا رآهم أحد لم يفرق بينهم وبين الفلاحين.

ثم طلع ملك الأمراء "خاير بك" نائب السلطنة بالديار المصرية إلى قلعة الجبل، فكان له موكب حافل، وأمامه جماعة كثيرة من العثمانية مشاه يرمون بالنفط، وعدد ضخم من العسكر العثماني، فأقام بالقلعة مقر الحكم في مصر، ليتولى شئون البلاد كما كان يتولاها من سبقه من حكام مصر من قلعة الجبل.

وأرسل في طلب النجارين والبنائين لإصلاح ما فسد بالقلعة بسبب القتال والحروب، ثم قام بتعيين خاصة رجاله المقربين في الوظائف العامة ليحكم سيطرته على الأمور.

وقد ذكر "ابن إياس " أن "خاير بك" نزل في أحد الأيام من القلعة وتوجه إلى باب الشعرية، وزار الشيخ عبد القادر الدشطوطي، وجلس عنده ساعة، فقيل أن الشيخ عبد القادر قال له :

- استوص بالرعية، فإنك تُسأل عن ذلك يوم القيامة.

فبكي "خاير بك"، وقبّل يده وخرج من عنده، وعاد إلى القلعة من يومه.

وبالرغم من أن "خاير بك" ظل يحكم مصر حتى وفاته سنة ١٥٢٢ م إلا أنه لم يشعر قط بنعمة الحكم، لعدة أسباب منها عدم احترام العثمانيون له وثوراتهم عليه وإفسادهم عليه كل احتفال أو مناسبة .

وقد احتاج إلى وقت طويل لاستعادة ثقة المماليك الجراكسة فيه، حيث كانوا يخافونه ويترددون عندما يدعوهم لأي وليمة أو احتفال، كما أنه لم يكن محبوباً من الرعية إلى حد كبير.

اعترافات خاين بك :

جلس "خاير بك" في أحد الأيام وحده وأخذ يفكر فيما حدث من البداية ويسأل نفسه ويجيب عليها في حيرة شديدة :

- هل كان عليه أن يفعل ما فعل ويخون الغوري؟

- لا إنها ليست خيانة بالمعنى المعروف بل هو تحالف مع سلطان قوي ضد سلطان ضعيف لحاجة الأمة لسلطان قوي في هذه الظروف العصيبة.

- وما هي تلك الظروف العصيبة؟

- غلبة الأعداء من كل اتجاه من الخارج والداخل، فالبرتغاليون قد أحكموا سيطرتهم على طرق التجارة البحرية ولم يعد الغوري ودولته قادرون على كبح جماحهم وإيقاف شرورهم، كما استفحل أمر الدولة الصفوية الشيعية وسيطرت على العديد من البلاد وقهرت أهل السنة وأقامت المذابح لهم، كما انتشر الفساد والرشاوي في الداخل، وكل هذا يهدد كيان المسلمين ويضعف من قوتهم.

- كل هذا كان من الممكن أن يحتويه السلطان الغوري

- مستحيل فهو متردد مغلوب على أمره وكل هذا يحتاج إلى سلطان قوي حازم ك "سليم الأول" يرهب الأعداء والمفسدين في الداخل والخارج ويحافظ على هيبة الأمة.

- وماذا فعلت لتنصح السلطان الغوري ليغير من سياساته ويصلح الأمور؟

- وهل كان الغوري سيقبل هذه النصائح؟

- كان من الممكن أن تحاول على الأقل، وبدلاً من التآمر على إزالة ملكه واستبداله بملك قوي، كنت قد حاولت إنشاء علاقة تعاون بين الملكين ليتعاونا معاً ضد أعداء الأمة.

- لقد راهنت على الحل الأسرع والمضمون، فدولة الغوري كانت إلى زوال على أي حال.

- هل كنت تطمع في السلطة؟

- ولماذا أطمع في السلطة وأنا نائب السلطان على حلب بالفعل؟

- ولكن نيابة مصر تختلف عن نيابة حلب.

- لم أكن أتخيل أنني سأصبح حاكماً لمصر وأُقيم في القلعة، إنها مسئولية كبرى لم أكن أتوقعها، فحاكم مصر ينبغي أن يكون....

- يكون ماذا؟

- ينبغي أن يكون سلطاناً وليس نائباً، فمصر تستحق ذلك بكل تأكيد، كما أن إمكانياتها تسمح به.

وظل "خاير بك" في صراع مع نفسه وضميره محاولاً أن يقنع نفسه ويريح ضميره بأنه كان مضطر أن يفعل ما فعله، ولكن الخيانة تظل خيانة مهما حاولت تجميلها.

فلقد استحق عن جدارة اللقب الذي أطلقه عليه " سليم الأول ".... فتحول من "خاير بك".... إلى "خاين بك".

******

المراجع

- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية – الجزء الثالث – تأليف تقي الدين أحمد بن علي المقريزي – تحقيق محمد زينهم ، مديحة الشرقاوي – مكتبة مدبولي.
- الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط (د علي محمد محمد الصلابي)
- مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري)
- كتاب مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية تأليف محمد عبد الله عنان ١٨٩٦-١٩٨٦ – الهيئة المصرية العامة للكتاب – مكتبة الأسرة ١٩٩٨ .
- المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور، تأليف محمد بن أحمد بن اياس الحنفي – مكتبة الأسرة ١٩٩٦
- كتاب (فصول من تاريخ مصر الإقتصادي والإجتماعي في العصر العثماني) د عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم – من سلسلة كتب (تاريخ المصريين) رقم ٣٨ – الهيئة المصرية العامة للكتاب طبعة سنة ١٩٩٠.
- المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي).
- مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري).
- طومان باي آخر سلاطين المماليك (د عبد المنعم ماجد).
- مصر من تاني (محمود السعدني).

ملحوظة :

وردت بالرواية مقتطفات من المراجع السابقة، أما الحوار الذي كان يدور بين أبطال الرواية فهو من خيال الكاتب ولكنه في سياق الحقائق التاريخية.

شخصيات معاصرة :

الشيخ زين الدين عبد الباسط بن الغرسي خليل ابن شاهين الحنفي مؤرخ وطبيب.

الأمير ماماي جوشن.

الأديب محمد بن الصايغ.

شخصيات تخيلية للرواية:

الخواجا شمس الدين أحمد النابلسي التاجر بالشرابشيين .

المعلم فخر الدين الذي كان كاتباً لدي الأمير أرزمك الناشف .

الحاج علم الدين الشامي صديق الخواجا شمس الدين.